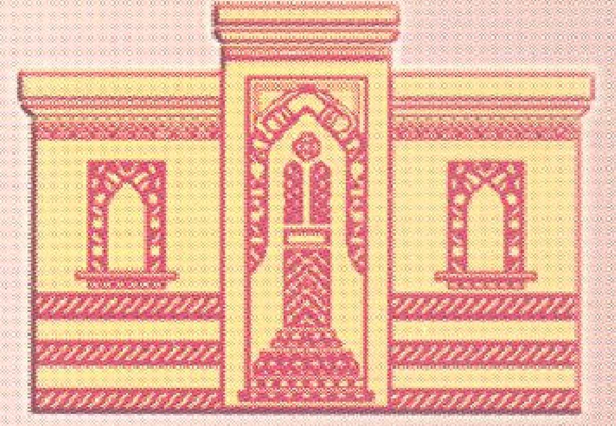


تخلع الخليقة أسماءها

قصائد مختارة



محمد عفيفي مطر

تخلع الخليقة أسماءها

قصائد مختارة



تخلع الخليقة أسماءها

قصائد مختارة

محمد عفيفي مطر

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
(١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م)

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة
أ.د. محمد صابر عرب

مطر، محمد عفيفي.
تخلع الخليقة أسماءها: قصائد مختارة/ محمد عفيفي مطر. ـ القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، 2007.
188 ص : مثى ؛ 24 سم.

٨٠٨,٨١

إخراج وطباعة:
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٧/١٧٣٦٣
I.S.B.N. 977 - 18 - 0508 - 8

إطار خشبي حول رسم في الماء

قالـــت لي أُمي إنَّها ولدتني في الحقول، ذهبت لتملأ جرَّتها من التـــرعة البعيدة "النعناعية" ففاجأها طلق المخاض، وهي تغمس الجـــرَّة في المـــاء، فدخلت بين أعواد الذرة، ودون مساعدة من أحـــد، أخـــرجتني إلى الدنيا ووضعتني في حجرها وعادت بي مـــسرعة، وعلى ساقيها، كما قالت، تتحدَّر خيوط الدم، تحت شمـــس الـــصيف "القادح" ولعلّي من يومها أحمل الميلاد وشمًا جسديًا وروحيًا لا يزول.

مكان هو بؤرة التكوين الجامع بين الطمي والنهر والأفق، وزمن هو بؤرة التفاعيلِ إذ تسري حضورًا وغيابًا بين الكرامة الكادحة والـــتاريخ المتدفق وبراح الخيال الحر، وهي كذلك لحظة المدد الأول للطـــباع المـــتحكّمة مـــا بين عنفوان لا يطيق الاحتجاز وشـــكائم الكـــبح وسلاسل الرضا بما هو كائن، وبين الانتظار الـــذي تعصف فيه خضرة الروح بمواسمها الملجومة بعشق النمو البطيء كحبة الذرة والتراكم المنتظم والفرح المؤجل الواثق بتمام الوعـــود والمواعيد .. ذلك الذي أسميه "**التفاؤل الكظيم**" وهي

اللحظـــة التي شكّلت الأقانيم الثلاثة الأولى: ارتباط بالنهر من أدنى عتـــبات الحـــواس الخمس صعودا إلى آفاق الرمز والرؤيا، وارتباط بالنهر من أدنى الذوبان الحسي إلى الملاحقة الصوفية في تجلّـــيات الـــنقائض العاصفة من جوع وبؤس ومذلّة وهوان إلى جبروت الهدم والفوضى الحية ومنازلات العشق الكليم والأسئلة الفاضـــحة، وارتـــباط بالفضاء المفتوح على الشمس من أدنى العجـــب والدهشة إلى مغامرة الاستماع لحركة النظام الكوني وتأمـــل الأفلاك. أفقيا، في الزمان وتوالد الحضارات ، وعموديا في الغـــوص والعلـــو بـــين حقائق المخلوقات ومسئولية الخيال الخـــلاق، ممـــا أضاف أقنوما رابعا هو الارتباط بالريح المتكلمة الصداحة بين الكهوف العميقة وبين مجهول السماوات والنفس، ذلك المجهول الذي يشاكسني بومضة هنا وومضة هناك.

وهكذا كانت حركتي الرباعية، بكل أخطائها وتخبطها، تتقاطع دوائـــرها وتتداخل،تـــستكين لحظة للذة مضغ الكلام ودوران الألفاظ بين الشدقين، وتتشظى أقواسها لحظة في فيضان الصور وعـــصف الأشـــكال، فاستأثر الطمي والنهر وما بينهما بزمني الأول، كـــدحًا وعـــرقًا وتربية للحواس والروح، وفتحًامرجعيًا

لـــنوافذ القـــراءات الأولى والاستماع لحرقة المبدعين في براح الحقول وبراري النفس ولوعة الرؤية، فكنت كالوليد الذي يتعلم الزحف في بيته، ثم يتخطى العتبة إلى جوع وعطش يتجليان في كل شيء، ويكشفان عن المفاهيم الأولى لكرامة الإنسان والعدل والحـــرية، فتـــصيبني هذه المفاهيم بجربة مسمومة هي الكراهية المبدئـــية للـــسلطة، كراهية لا شفاء منها، وأدركت أن الزمن الأغـــبر سيواجهني بها في كل السبل ، وأن هلاك أيامي سيكون على يديها، وأن أعمق لحظات الأمان بيني وبينها ستكون شبيهة بلحظة التقاء عيني الثور بعيني مصارعه: قوة وحشية متكتلة أمام رعب جريء يؤاخي الموت ويستألفه برشاقة الرقص والموسيقى وأسنَّة الكلام .

انـــتظمت حـــركة الدائرة الأولى في : مجمرة البدايات، الجوع والقمر، من دفتر الصمت، يتحدث الطمي، وهي الدواوين التي تـــشكل بطاقـــة تعـــريف أولي بنفسي وأهلي وظروف ولادتي الشعرية بين الأرض والنهر ومسلمات الحواس الخمس ومعطيات التعـــرف المباشر على معاني الوجود في عالمي، وتأسيس ملامح ماهـــيتي وهويتي عند افتتاح القول، وهي التي ستنضح وتترشح

منها وتمتد أنساغ وعروق لافكاك منها طوال حياتي ، تنقيبا ونقضا وعودا على بدء، إلحاحًا واكتشافا وتوسعة لرقعة الرؤية والتأمل ومحاولات الإعلاء الدائبة إلى آفاق المعنى،نشرت الدواوين المذكورة كغيرها من الدواوين نشرا عشوائيا حسب مقتضيات الحصار والحذف والمطاردة والمتاح من فرص النشر خارج مصر، والديوان الأول لم ينشر إلا في العام (١٩٩٤) بعد ما يقارب الأربعين عامًا من كتابته.

في حركة الدائرة الأولى كانت القراءات المتسعة تجعلني أشعر بالانتماء لعائلة الكلام الجميل وأنتسب لمجامعها المتلاطمة انتساب صاحب الحق في الجدل والتأثر والنقض والمشاغبة، في لوامع تتشظى هنا وهناك من التراث المصري القديم والثقافة الإغريقية والتراث العربي ومدارس الجدل والتفلسف والتصوف الإسلامية، على أرضية ومهاد شاسع من التراث الشعبي من خرافات ومواويل وملاحم، فدخلت في معمعة التأويل وإعادة القراءة لكل ما أعرف ، في ظل سؤال باطش غلاب حول السلطة، التي ازدادت فداحة كراهيتي لها ولشخوصها وتقاليدها وممارساتها، لا في زمن محدد، بل منذ الملوك الآلهة حتى عسكري

المـــرور " أبو شلن "، ومن قتلة سقراط وهيباتيا حتى قتلة سيد قطـــب، ومن حلف التعصب القومي والعنصرية عند أر سطو ووحـــشية السيناتو الروماني ومحاكم التفتيش ووحوش فرسان الـــصليب حـــتى مجازر عصبة الأمم والأمم المتحدة، ومن الدم الـــنازف الـــسيال من صفحات التوراة حتى مجزرة الخامس من يونيو .. إلخ. كان السؤال الباطش المتوحش تتحول كل إجاباته إلى أسئلة أشد هولاً، يحرمني الهدوء والنوم ويشوش علي القصائد ويـــدفعني من صراخ مباشر فج إلى فظاظة السخرية الكئيبة إلى الـــيأس المقهـــور من كل ما أرى وأسمع إلى نزوع انتحاري في الـــصدام، وكانـــت تجليات هذه المكابدة القاسية في الدواوين الأربعـــة : ملامح من الوجه الأمبيذوقليسى، رسوم على قشرة الليل، كتاب

الأرض والدم، شهادة البكاء في زمن الضحك.

كانت انتفاضة الطلبة والشباب في العالم العام (١٩٦٨م) غمامة رفرفت في قلبي بطهارة الينابيع ودهشة الأسئلة وعنفوان التحديق البكـــر في كل شيء من جديد،كانت لحظة من الغضب الملهم والغنائـــية الكونـــية تعيد سبكي وتنفخ في روحًا كالبعث من

الأمـــوات، وتؤجج نيران الشاعر - الملك - الملهم المشتعل في رمـــادي فكانـــت بدايات الدائرة الثالثة بديوان :والنهر يلبس الأقـــنعة، وهو الفاتحة الأولى لعنف الطيران الحر في أجواء الشعر والفلسفة والموسيقى والتصوف، وعنف الغوص في حقائق الأمة وتجلـــيات حـــياتها وحضارتها المكنونة وأحلامها التي لا تنهزم الالتفتق عنها الأكفان الوقائع والمرحليات، واتسعت خطاي في "رباعية الفرح" بالخيال والتجربة والتأويل، وصولا إلى شد الوتر إلى حـــد القطـــع وتحطـــيم المعزف عند مجانين النغم في " أنت واحـــدها وهـــي أعضاؤك انتثرت"، الذي استنـــزفني وأهجني وتركني معتصرا منهكا حتى ظننت أنني لن أقوى بعده على ورق أو كتابة ، وظللت خمس سنوات أهدى ءمن انتفاضات جسدي كـــأنني عـــدوت عمـــري كله لأكتبه . وأتملى دبيب الراحة والـــسكون بعـــده حـــتى أغلقت هذه الدائرة بديواني "فاصلة إيقاعات النمل"، ووضعت على هامش هذه الدائرة ديوانا يكاد يكـــون رصـــدا وقائعـــيًّا وبيانا مقتضبا حول تجربة الاعتقال والـــتعذيب في أقبية لاظوغلي، وكأن السلطة أبت إلا أن تكون مصدقة لما تقدم من سالف الكراهية المبدئية التي لا شفاء منها.

لقـــد كانت السنوات الأخيرة على خلاف ما يقوله العرب عن العشر الفاصلة بين الستين والسبعين: "دقا قة الرقاب" لما يتوالى فيها من وهن الشيخوخة وضعف الجسد والذاكرة وخمود الروح فقـــد كانـــت رغم كل شيْ سنوات فتح من البهجة العجيبة بالكـــتابة لم أعهـــدها من قبل ، فقد انتهيت من كتابة "أوائل زيـــارات الدهشة"، وانفتحت علي ينابيع الكتابة للأولاد على اتـــساعها ، فبعد كتابي لهم عن البارودي، أنجزت أكثر من مائة وعشرين نصا ، وديوانا صغيرا لهم بعنوان " صيد اليمام " وكلها تحـــت شـــعار واحـــد : "مسامرة الأولاد كي لايناموا". كما تـــرجمت بالاشتراك الأعمال الكاملة للشاعرة السويدية الطليعية "أديـــث ســـودر جـــران" وترجمت ديوانا ضخما من مختارات الـــشاعر اليوناني " أوديسيوس إيليتس "، وأهم عندي من هذه الأعمـــال أنـــي استمتعت بها وفاضت بهجتي بإنجازها إلى حد الطرب الطفولي.

أســـتكمل الآن مشروع الكتابة للأولاد ، وافتتح الدائرة الرابعة بقـــصائد مـــن ديـــوان لم يكتمل بعد بعنوان : " معلقة دخان القصيدة ".

قالـــت لي أمي إنها ولدتني في الحقول ، فهل هي نعمة الكفاف الـــتي تجعلـــني أتمنى أن يصل بي عشق الكفاف إلى حد الاكتفاء بأعشاب وحشائش الأرض !! وقال أبي : إننا من سلالة يموت أغلـــب رجالهـــا في الثامنة والستين ، هكذا مات جده وأبوه، وهكـــذا مات هو من بعدهما، وأظنني محكوما بهذا الإيقاع، إذًا فأمامـــي ثلاث سنوات ونصف فهل من نعمة التمام أن أقطعها ســاعيا علـــى قدمـــي سعي الحشرة الدؤوب في بهجة الكدح وكـــبرياء الملوك الذين لا حكم لهم على أحد، ولا حكم لأحد عليهم!!

وهل تتحقق أمنيتي بأن أموت فوق أكوام التراب في الغيطان ما دمت لا أملك شرف الموت شهيدًا !!

وهـــل تـــتحقق في المـــوت روعـــة الخلاص من رؤية الوقاحة وادعاءات الأذلاء المهانين وغرور وبرطعة المهزومين السعداء!!

أعترف ملء القلب والروح من أنس أنيس بالحيوانات والأغنام وتـــربية الـــنحل وملاعبة التكوينات الغامضة لموسيقى وصور القـــصيدة وحكايـــات الأولاد ومشاكسات أحفادي، وأرتوي

بحنان ابنتي ناهد ورحمة، وأتأمل ضاحكًا محاولات ابني لؤي وهو يحاول إعادة تربيتي وتأهيلي لشرف الانتساب إلى عصره.

في تلـــويحة الــــوداع أقول: حياتي مغسولة بعرقي، ولقمتي من عـــصارة كدحي وكريم استحقاقي، لم أغلق بابًا في وجه أحد، ولم اخـــتطف شيئًا من يد أحد، ولم اكن عونا على كذب أو ظلم أو فساد ... اللهم فاشهد.

محمد عفيفي مطر

١٩٩٥

رَعَويَّةُ نومِ الحطّاب

ليس ما تنظرُ إلا من تراب السعي،

أقدامُ الرعاة

تركتْهُ أُمَةٌ تربو وتمتد على المعمور والمهجورِ،

من أجا ثها تنشقُّ أثلام المحاريثِ،

حديدُ الفأس والمنجل سنُّ القلم الكونيّ

فاكتب يا حديدَ الفأس والمنجل ما تسمعُ من

زحفِ الخطى والشعرِ

وارفع للأعالي نشوة المكتومِ

من سحر الغناء

علّني أسمعُ آبائي الرعاة

تحت أطباق الثرى

- جيلاً فجيلاً -

يُكملونَ الرجَزَ المعقودَ والمحلولَ

طينًا يكتسي بالعشبِ والبرسيمِ

في برد الشتاء

أو يُزيحونَ إلى دفء الضحى ثرثرةَ الأصداءِ

في الوديان بالطير ومكلومِ النداءْ

أو يُطلُّونَ على قلبيَ من دائرةِ الأفقِ رمادًا

شاخصًا في شجرٍ عالٍ تُعرِّيهِ الرياح

كلما أسقَط من أوراقه موسمَ نومٍ وذبولْ

أدفَأ البذرةَ والجِذْر..

فدبَّ الموسمُ الموصولُ في أحقابه،

مَهْمَزَ مكنونَ الطلوعْ

بمهاميزَ من الدفءِ فدبَّتْ صحوةُ الأنْساغِ

من غفْوتها في الخشب الحيِّ،

ومال الخشبُ الميِّتُ مقصوفَ الفروع

وأنا أحملُ حبْلَ الليف والبلطةَ

حطابًا وحيدًا في مراعي الخشبِ اليابس والرَّطْبِ

يُغشِّيني الضحى بالصمت والصحوِ،

يدبُّ الخدرُ الناعمُ رملاً من نعاسٍ دافئٍ

في ركبتيْ

قلتُ: أرمي حزمة الأحطاب حتى أغتفي،

أسلمتُ للأرض ترابًا نائمًا يقظانَ

فاذَّاوبَ في سحرِ بكاءٍ وغناءْ

عتَّقَتْ لحنَهُما الأرضُ..

فمن أيٍّ الضلوع،

أيٍّ أكبادِ المغنينَ ارتوى الشعرُ؟!

ومن أيٍّ الدموع

طَقْطَقَتْ نارُ القِرى في حطب الأجيال

من أهلي الرعاة

ثم فاضت بهم الخيلُ،

ودقّوا في بِطاح الكونِ أوتادَ الخيام

فهم النجم إذا أغطشَ ليلٌ

وهم المشرقُ والمغربُ للشمسِ

وهم مفتتحُ الرحمةِ بالقولِ

إذا عزَّ الكلامْ !!

٢٠٠٦/١٢/٢١

رملة الأنجب

رعويّة العبور في الخوف

لم أكنْ أحلُمُ . .

شقٌّ في حِزَامِ الصوفِ مفتوحٌ على شقٍ

عريضٍ في فضاءِ الليلِ

يهوي منه صوتُ الكروان

في نعيبِ البوم في غوغقة الغربانِ في صوتِ

انطفاءِ النيزك الحيران فوق الثَّبَجِ الأسودِ،

رعبٌ في دمي يفتحُ عينيَّ على الفجرِ الوليد

وأنا أنفخ شبّورةَ دفءٍ بينَ كفيَّ

وأغنامي ورائي

وأمامي "سيِّدي عبّود" في صمت المقام

نـــائمٌ،

أوْ علّهُ يقظانُ في أكفانه الخضرِ،

لعلّ الموتَ آخاهُ فأبقاهُ،

لعلَّ الأرضَ أبلتْهُ وأبقتْهُ الصبايا والنساء

راحلا بين السما والأرضِ ..

في شُبَّاكِهِ من خرق الأثواب والخيط

رقاعُ النفث بالأسرارِ

والأحلام والأوهامِ من عشقٍ

وجوعٍ وانتقامْ

لم أكن أحلُمُ ..

والغُبْشةُ من شقّ الفضاءْ

تلقَفُ الأنْجُمَ والصبحُ على وشْكِ الطلوعْ

سيدي عبّودُ خلفي

وأمامي مَدْفَنُ القريةِ مهجورٌ

ومهدومُ السقوفْ

سقطَتْ جُدرانُه وانكشف الموتى ..

عظامٌ بليتْ تَصْفِرُ فيها نسمةُ الصبحِ،

ترابٌ سَبِخٌ يلمعُ بالدهنِ،

تجاويفُ عيونٍ حدَّقتْ من غابرِ الموتِ،

بقايا ضحكٍ فوق بقايا من صراخٍ هالعٍ

قد غالها الصمتُ المهان

لم أكن أحلمُ ..

دبَّتْ من ورائي خطوةُ الموتى،

عظامٌ قعقعتْ وانخلعتْ

والتفَّ حول الكاحِلين

كفنٌ بالٍ وأبيضٍ دونه لحم

وعضَّتْ قدمي جمجمةٌ مشروخةٌ

واهملَ الصبحُ بأصواتِ الرميم

لم أكن أحلمُ ..

بل كان المنامْ

سكَّةَ الرؤية في قلب الظلامْ..

٢٠٠٦/١٢/١٢

رملة الأنجُب

رَعَويّة الدخولِ إلى إرَم

رملٌ وراءَ الرملِ

سبعةُ أبحرٍ نفدَتْ بها سبعون من عمر الصبيِّ

وليس ينفَدُ من سوافيها المددْ

سبعونَ من عمر الصبي تضفَّرتْ فيها

المسالكُ بالمهالكِ

والرؤي ينْهشْنَهُ،

صبواتُ شِعْرٍ كنَّ يستهْرِقنَهُ

فيسيلُ في الرملِ الجسدْ

وفتوقُ رعبٍ ليس يَلأَمُها سوى رعبٍ أشدْ.

قال الصبيُّ:

لو انني استقبلتُ ما استدبرتُ
من عُمْرٍ وأحوالٍ لألقيت القياد إلى
السوانحِ من قطيعِ الغيم والأطيارِ
واستأنست بالنظر البعيد والانتظارْ
لكنني استأنستُ بالذؤبان والحيّاتِ
والركض المولول والسباحة في السرابْ
من ضربةِ الشمسِ انكفأتُ على خُطايَ
وظللتني أمْنَةُ الإغماءِ،
ثُمَّ رأيتُ فيما يرتئي اليقظانُ صفًا من
جلاوزةٍ على باب المدينةِ
قلتُ: أين أنا؟! ومن أنتمْ؟!
فقالوا: هذه إرمٌ،
ونحن جنودُ شدّادِ بن عادْ

من ألفِ عام لم يجئْ منكم أحدْ
خذ من أطايبها نصيبَكَ
أنتَ موعودٌ بها من ألفِ عامْ
بل أنت موعودٌ بها من يوم أن سَفِيَتْ
بك الأرحامُ في كفِّ البدَدْ
تفنى كما تفنى المدينةُ ثم تُبْعَثُ مثلَها
فادخل..
دخلتُ.. أهذه أعجوبة الصخر الممرَّد
أمْ بها بشر سيندلعون من صمت الرخامْ؟!
كانت خطاي تدبُّ في أصداءِ حيرتها ووحشتها،
وكان المرمرُ المنحوتُ ينبت من فَراهةِ أرضها
عُمُدًا وأروقةً تقود إلى جنائنَ من
قصورٍ زيَّنَتْ أبهاءَها أجيالُ نقاشينَ،

واستصرختُ: هل أحدٌ هنا؟!

فارتدَتِ الأصداء: هل أحدٌ هنا !!

حدَّقتُ في وجه السماء القاحلة

ليستْ سماءُ الله والإنسان هذي،

ليسَ من تاريخها أن رفرفتْ فيها

عصائبُ من دخان العائلةْ

لم ينعقدْ فيها نداءٌ أو غناءٌ أو

تقشَّرَ صمْتها بصلاةِ ملهوفٍ

وصرخةِ ثاكلةْ

لم تَتَجدلْ أحوالُها بنـــزول آيٍ

واستراقِ السمع من جنٍ

ونقشِ سنابكِ الإسراءِ والمعراجِ،

تحتَ أديمِها لا ظلَّ لي

والأرضُ ليست من تراب السعي والموتى

الذين توشّحتْ بيني وبينهمُ الخطى والخبزُ

واشتبكت عروقُ الطمي والماءِ،

المناجلُ والفؤوسْ .

لا حرفَ ينطق من كتابتها بأسمائي وأسماءِ الحصادْ .

ناديتُ واسْتصرَختُ: هل أحد هنا؟!

فارتدت الأصداءُ أسرابًا من الرعب المجنَّحِ

قلتُ: أرجِعُ قبل أن تتخطَّفَ الذؤبانُ أغنامي،

استدرتُ فلم أجد بابًا لأخرجَ

فانكفأتُ على خطايْ..

٢٠٠٦/١١/٢٩

القاهرة

ألفُ قيامةٍ لموتٍ واحد

مرثية
في اغتيال شامل با سييف

[اجتمع الشيوخ في الساحة ،في حلقات ليناقشوا الوضع، لم يتحدث أحد عن كراهيتهم للروس، لأن ما كان يشعر به الشيشانيون صغارا وكبارا، كان شيئا أقوي من الكراهية، بل اشمئزازا ونفورا وحيرة في مواجهة هؤلاء الكلاب الروس وعنفهم الغبيّ، والتطلع نحو محوهم كما تمحى الفئران والعناكب السامة والذئاب .]

ليوتولوستوي (١)

رواية الحاج مراد

١٩١٠

رفّتْ علي وجهِ الصبيِّ فراشتانِ

وحطّتا غمازتينِ تشعشعانِ

- إذا تبسَّمَ - بالحليبِ وشقشقاتِ الماءِ،

تنغرسانِ - إن غضبت ملامحُهُ - كبرعمِ دمعتين.

(أسميتُكَ النجمَ الذي يعلو،

يشقُّ غياهبَ المنفي توقُّدُهُ

أسميتُكَ النسرَ المحوِّم في سماءِ الروح،

سدرةُ منتهى الأشعارِ مرقدُهُ

أسميتُكَ الحصباءَ والأعشابَ في جبل العشيرةِ..

أنتَ راعيهِ وسيِّدُهُ

لستَ ابنَ أمِّكَ أو أبيك إذا نسيتَ ذراهُ

أو أُنسيتَ أنكَ للرعاءِ وللخيول الخنجرُ الحامي

وللحطاب جمرتُهُ وموقدُهُ

حتفٌ لمن عاداهمو سيفٌ لمن كانت لهم يدُهُ

أسميتُكَ النبعَ المزفزفَ بالمياه ليشربَ

الطيرُ الشريدُ ويصطفي عشًّا

يزقزقُ من تكاثره تجدُّدُهُ

أسميتُكَ الغضبَ المقدَّسَ،

فالرياحُ خيولُ أحرفِهِ الضوابحُ،

والغيومُ دليلُ قلبكَ في الرحيل إلى

ثراكَ .. فأنتَ كثرتُهُ وواحدُهُ

يا ابني ويا ابن أبيكَ وابن أبيه..

لا سِمكَ إرثُهُ الوقّادُ في الثأرِ المؤرَّثِ

والجبالِ وفسحةِ الآفاقِ،

والجَرْسُ الكظيمُ لكلِ نائحةٍ تردِّدُهُ.)

- ٢ -

[كانت هناك أمة (في الجولاج) لم تستسلم أبدا، لم تتطبع مع الحياة العقلية للاستسلام، ولم تكن جماعة من المتمردين، بل كانت أمة بأكملها – أشير هنا إلى الشيشانيين – هؤلاء لم يحاولـــوا إرضاء أو استرضاء الزعماء، وكانت أفعال هذه الأمة متشامخة، وكانت في الحقيقة معادية، وهناك شيء غير عـــادي يجب الإشارة إليه، أنه لم يتمكن أحدٌ من منعهم من الحـــياة علـــى الطريقة التي كانوا يعيشون بها، والنظام الذي حكم (الجولاج) طوال ثلاثة عقود، لم يتمكن من إجبارهم على احترام قوانينه.]

سولجنتسين (أرخبيل الجولاج)(٢).

كانت أغاني المهد تصهلُ في براحِ القلبِ..

فانبسطَتْ سماوات وأرضٌ،

واشرأبَّتْ من خطى إيقاعِها الأوتادُ

والغاباتُ، وانفسحت مرامحُ خيلِها،

امتدت ملاعبُ طيرِها ونسورِها بين الطباقِ السبعِ،
أمُّكَ فتَّحَتْ في مُعْصراتِ الغيمِ أبوابَ الكلام:

- لا ينحني رجلٌ لغير الله والأعشابِ في
سجَّادةِ الملكوت
والماءِ المزمزِمِ في الشقوقْ.

- أرضُ العشيرةِ والفطام بعيدةٌ بُعدَ الصِّبا
وقريبةٌ قربَ الغناءِ من الحناجرِ والرباب.

- الأرض حولك في اتِّساع القيدِ،
في لغة القياصرةِ القدامى ظلمةُ المنفى،
وفي لغةِ القياصرةِ الحثُالة رعدةُ الموتِ المُهان.

● الموتُ، أقسى الموتِ، أن تَنْحلَّ طينًا في

يد الخزّافِ يعجنُهُ ويُبدئُهُ وينفخ فيه من

أهوائِهِ وكأنه ما كان ذا شكلٍ ولا معنى.

● قلبٌ بلا جبلٍ تحومُ نسوره وتُضيءُ شمسٌ

في مرايا ثلجهِ: حجرٌ،

ورأسٌ لا يطنُّ به انحدار الماء في الوديان:

محضُ خَرابةٍ لا يستحق بهاءَ "قلْبَقِ"(٣) جدِّهِ،

ويدٌ تُزَلْزِلُها من الخوف المهينِ نذالةُ النسيان،

لا تقوى على حسمٍ بطعنةِ خنجرٍ:

مولـــودةٌ للقطْعِ،

والشَفةُ التي لا تستطيبُ قراءةَ التجويد للدم

في صحائف أرضها ومتونِ أهليها:

بغيٌّ خيانةٍ تلغو

ولم يُخلَقْ لها شرفُ اللغة.

• في الغيمِ مهرٌ أشهبٌ

أرسانُهُ خَيْطَانِ من ريحٍ ومن مطرٍ،

وفرشُكَ سرجُهُ، فاحلمْ وباغِتْهُ وضفِّرْ

من صهيلِ البرقِ والأرسانِ واعقدْ

في حديدِ النافذة

أنشوطةً، واحلم به حتى يحين الوقت.

● للنسرِ ما امتدَّ الفضاءْ

مِنْ فسحةِ الطيران في أهوائِه ودمائه

من أول الوكْرِ الممنَّع في الذرى

حتى انفجارِ النورِ تحتَ العرش،

ما من سكةٍ لترابِ أهلك غير ما انتقشت بهِ

الحصبْاءُ من دمكَ الذي انهملتْ

خُطاه على خطاكَ،

وللرحيل إلى دِمائكَ.. من دمائك نجمةٌ تَهْديكَ..

فارحـــل..

- ٣ -

[لـــيس الشيشاني سوى قاتل، وإذا لم يكن قادرًا على القتل فهو قاطع طريق، وإذا لم يكن هذا ولا ذاك فهو لص، وإذا لم يفعل ذلك فهو ليس شيشانيًّا.]

الجنرال باراكوف

[يجـــب القضاء قضاء مبرما على الشيشانيين قطاع الطرق، كالكلاب المسعورة]

بوريس يلتسين(٤)

أمـمٌ تكشَّفَ زيفُ ما عاشتْهُ من رعبٍ ومِنْ كَذبٍ
تفكِّكُ عن مغازِلِها حبالَ قيودِها
وتقيءُ ما اعتَلَفتْهُ — قهرًا — من مَعالف قاهريها
والسماءُ قريبةٌ وخناجر الشهداءِ
تنحِتُ أو تقشِّرُ ليلَها

والفجر يبزُغُ من أسنَّتِها

ويركضُ في فيافي الروح..

هل تَعْرى الخليقةُ مثلما وُلِدتْ من الأسماء يومَ

النفخة الأولى بأربعة العناصرِ؟!

والغرائزُ فتَّحتْ مكنونَها؟!

غَطَّت غروزني والقرى فوق السفوحِ

هشيمَها بجروحِها

وتنظَّرَتْ غوثًا

وقد سقط الكلامُ على الكلامْ

كذِبًا على كذبٍ،

وأقنعةً قَرَّأَ لحمُها وتفسَّختْ من تحتها

جيفُ الملامح، أوجهُ الأمواتِ تلغو،

ليس يقبَلُها الردى، لا ترتضيها الأرضُ

فهي بلا قبورْ

تعوي وتنبح في سهوب القتلِ.

والظلماتُ فيضُ دمٍ و أشلاءٍ،

وسيفُ البرقِ يشْرَخُ في الجبالِ

مسالكَ البدء المجلجِلِ بالنشورْ

لغةً تُغافِلُ موتَها وتشق في الجبل الطريِّ مكامنَ

الشهقاتِ والزفراتِ

(أمُّكَ في أغاني المهد والترقيص كانت

تنتشي وتقولُ : ليس علي مدي الأعمارِ

ألْيَنَ من صدورِ الأمهاتْ

إلا جبالُ الأهلِ والحصباءُ في طرقِ الرجوعْ.)

فادخُلْ عروقَ الصخرِ واصعد للذري

ومكامن الشهداء من وكرٍ لوكرٍ،

إنَّه البدءُ المجلجِلُ بالقيامة والنشورْ

فاصعدْ لتُكْمِلَ دورةَ الإحياءِ في طبع النسور ..

[كيف يتسنى لإنسان شريف أن يعيش في وطن كهذا]

الجنرال أليكساندر ليبيد.(٥)

سقط الكلامُ علي الكلامْ

رملاً على رملٍ،

وأطلالاً من المعنى على معنى الرُكامْ

والكونُ منكدرٌ كأنّ النطقَ والإشهادَ ما كانا،

كأن العرشَ منغرسُ القوائم في ظلام الغمْرِ،

تنسحبُ الخليقة في الأفولْ

ينْحَلُّ ما اشتبكت به الأشياءُ في تكوين جوهرها

ونسج جدالها المشبوبِ،

كلٌّ نقيضةٍ تَفْنى وتُفْني أختَها

فالريحُ بابٌ موصدٌ، والبئر أخيلةُ الأعالي ، والمياهْ
حُرَقٌ من الظمأِ المذوَّبِ في سراب الروحِ،
والنيرانُ رعدةُ وحشةٍ في القشِّ والأحطابِ،
والطينُ انتظارٌ ذاهلٌ ..

لا النطق يحييهِ
ولا الإشهادُ يطلقُهُ..
أسيرٌ أنت في دمك الأسيرِ وأنتما والأهلُ
في البلدِ الأسيرْ

كان الثمانيةُ الذئابُ(٦) تحلّقوا حول القصاع،
ثريدُهم لحمُ الشعوبِ، شرابُهم نفطُ الجياعْ
كانوا، وكان القيصرُ الشحاذُ شيخُ المخبرين
يدعو اللصوصَ ليشربوا نَخْبَ اغتيالكَ ..

كان رمحٌ من دمائك يشرَخُ الملكوتَ،

فاعرج .. ليس من حرجٍ على الأعرج(٧)

واعرج وطف "بالنقش بند"(٨) ،

ارقصْ وظالِعْ دورةَ الأفلاكِ

واخطف وردةَ الدم من حرائق قندهار

خُذْ عشبةً نبتت بجمجمة الشهيد علي ذرى الكرْملْ

خُذْ وردةً من كف شحاذين حول النيلِ

واشربْ غصةً من طميهِ الأهطلْ

خُذْ سعْفةً من نخلة السيَّابِ

وامضغ تمرها المعجون بالنابالم والبارودْ

خُذ طُرَّةً من كسوةِ البيت العتيقِ

وآيةً من زُخرفِ المحملْ

في الليلة الكبرى وساعةِ عرسك الموعودْ

قد تشهَقُ الأمم الذليلةُ شهقة الغضب الولودْ

يا راحلاً عكّازه برْقُ البُراقِ ورعدة الآفاقِ

تحتَ الأشهَبِ الأجدلْ(٩)

من ذروة الأفلاك رجِّعْ وِرْدَكَ المورودْ:

"ما في الصبابة مَنْهَلٌ مُستعذَبُ

إلا ولي فيه الألذُّ الأطيبُ

أو في الوصال مكانةٌ مخصوصَةٌ

إلا ومترلتي أعزُّ وأقــــربُ

أنا بلبلُ الأفراحِ أملأُ دَوْحَــــها

طربًا، وفي العلياءِ بازٌ أشهبُ ."(١٠)

٢٠٠٦/٩/١

رملة الأنجب

هوامش وإشارات

١، ٢، ٤، ٥: نـــصوص مأخوذة من كتاب "دفاتر العنف المقدس"، تأليف الكاتب الأسباني خوان غويتيسولو، ترجمة: د.طلعت شاهين.

٣- القلـــبق : غطاء للرأس من فراء الأغنام، يعد من معالم الملـــبس في مـــنطقة القوقاز، ومن التقاليد الشيشانية أن يرث الولد المسمي باسم الجد أو الأب قلبقه،كأن الرأس ينتقل بالوراثة، والحفاظ على شرف الاسم والقلبق دليل على استحقاق الوارث لما ورث.

٦- في الـــتحاق ذلـــيل بكوكبه الثمانية العتاة من اللصوص العالميين، كان "بوتين " يبشر المجتمعين في بطرسبوج بنبأ اغتيال المجاهد شامل با سييف.

٧- كان المناضل الفذ قد فقد إحدى ساقيه في معركة سابقة ضد جحافل الروس العنصريين المستعمرين.

٨- نقش بند: نقش أسماء الله الحسنى وأوراد الذكر الصامت في الطريقة النقشبندية، وهي الطريقة الصوفية التي قادت

النضال الشيشاني طوال قرنين من الزمان قبل تولي الطريقة القادرية متابعة النضال، بند: قلب.

٩- الأشهب الأجدل: إشارة إلى لقب عبد القادر الجيلاني منشئ الطريقة القادرية: الباز الأشهب.

١٠- الأبيات من شعر عبد القادر الجيلاني.

ملحق

كـــتب تولوســـتوي روايته "الحاج مراد" عن بعض ملامـــح الحرب الوحشية والغزو الهمجي في منطقة القوقاز، والـــتي يسيل الدم فيها منذ ما يقارب ثلاثة قرون، وقد أورد في الـــرواية أغنيـــتين شاعتا على ألسنة الشعب، أنقلهما من الترجمة الإنجليزية، كملحق للمرثية:

١ – أغنية أم

كان صدري الأبيض قد اخترقته

طعنة نصل لامعٍ من الصلب

لكني أرقدت ابني الوضّاء، ولدي الحبيب،

على الجرح

حتى اغتسل جسده بدمي الدفّاق.

واندمل جرحي بغير دواءٍ من عشبٍ

أو حشائش

ولأني لم أخشَ الموت،

فإن ولدي لن يخشاه أبدا..

٢– أغنية ثأر

سوف تجفُّ الأرض فوق قبري
وأنتِ، يا أمي، سوف تنسينني.
سوف ينمو العشب فوق المقبرة
ويخفف من حزنك يا أبي الشيخ.
والدموعُ ستجف من عينيْ أختي
ويتبدد الأسى من قلبها

ولكنّك، يا أخي الأكبر،
لن تنساني حتى تثأر لموتي
وأنت، يا أخي الثاني،
لن تنساني حتى ترقد إلى جواري.

وأنتِ، أيتها الرصاصة
حارقةٌ وتحملين الموت
ولكن، ألم تكوني طوع أمري؟

وأنت، أيتها الأرض السوداء

سوف تغطينني،

ولكن، ألم أطأكِ تحت حوافر حصاني؟

ويا أيها الموت، أنت باردٌ

ولكنني كنت سيدك.

ستنالُ الأرض جسدي

أما روحي.. ففي السماء.

من معلقة دخان القصيدة

- ١ -

أصطلي موتيَ وأصغي لشقوق الأرضِ:

هل من صخب يعلو على ما في التراب
من تراث القتل؟!
يُقعى الشاعر الأعمى البصير(١)
في فضا الأرض وأبواب التواريخ
يرى المشهد في جلجلة القيثار بالرؤية
والرؤيا،
وأدنى من صدى إنشاده بجزرةُ البلقان:

هل ماءٌ كما في جَمَدِ النهرِ الذي
ينقل من واد إلى واد حصادَ
المسلخ الوحشيِّ،
هل طيرٌ سوى حَوْصلة الريح التي
تنهشُ أشلاءَ العراءْ
ثم تعلو كي ترى أعينُ من ماتوا
بقايا المجزرة؟!
للذكور القتلُ، والنسوة للهتكِ،
الصبايا محضُ فرج لاشتفاء
الثأر،
مَا عونُ منيٍّ يغسلُ التاريخَ
من وجه "ماهومت"
وخنازير "ماهومت"..(٢)
إنها غيمة طيرٍ لاحم نفَّرها من
صدأ الأجراس قداسُ دمٍ
محتدمٍ بالثأر،

تعلو ثم تنقضُّ على نبع دم

تحت حطام المرمر المنحوت من

أدعية الفجر ورعب

الإبتهالات،

وفي ليل السرائر

تكسر الغيلانُ والهُولاتُ والجنُّ

وأشباحُ السعالي والتواريخِ

مزاليجَ العيانْ

فهيِ قناصون في أعينهم ينقدح

الفولاذ والبرقُ،

وريحٌ تعجن الأحياء بالقتلى

وتنشقُ "سراييفو" عن

القبر الجماعيِّ الذي

أصبح كلَّ الأرض،

في الليل الثقيلْ

يخرج الموتى إلى أشلائهم

يستكملون الجثث الضائعةَ

الأطرافِ والأرؤس كي

يكتمل الموتُ الجماعيُّ

وكي يستكملوا الحضرة في

غرغرة الذكر الأخير:

نحن ثأر الله في مجزرة

البلقان،

أشباحُ دم أوْرادُها محوٌ

وتأويلٌ لما يلغو به زيفُ

المواثيق وعارُ الأمميات،

ونحن الفزعُ الخالدُ،

أطيارُ قصاصٍ لا تُرى،

تملأُ ما تحت السماوات إذا

أغطش ليلُ أو أطل

الفجر من أوكاره،

نركض ما بين سهوب الثلج والأدغال،

في الأيدي محاريثُ عظامٍ

من بقايانا،

نشق الريح والأرضَ

ووديانَ الكلامْ

نحن في قهقهة الرعد نداءٌ ساخرٌ:

هل يغسل الماءُ الضمير؟!

بعدنا.. كيف تدوّي الريحُ

بالأجراس أو

تُقبلُ في الأرض صلاةٌ؟!

والمحاريبُ دمٌ يشهد

والمرمرُ إشهادٌ على القتل،

التراتيمُ وآياتُ المصلين

صدى حشرجة الموت،

افتحوا الأبواب أو لا

تفتحوها

أنتم الوحشُ الخرافيُّ الذي

يأكل من أعضائه

عضوًا فعضوًا،

ثم يفنى،

ثم تنحلُّ الخواتيمُ عن البدءِ

ولا نوم لكم حتى تُرى

أبواقُ إسرافيلَ في الآفاق

والآذانُ من تحت الرمادْ

تُرْهِفُ السمعَ.

وما من صخبٍ يعلو على

ما في التراب

من تراث القتل،

فاسمع أيها الأعمى البصير

واقرأ الشمس التي لم ترها من قبلُ:

-٢-

رعدٌ بارقٌ يلْتمُّ في راحته جلدُ السماوات

وفي قبضته يُطوى أديمُ الأرض،

والكونُ دخانٌ في دخانْ

إنها النفخةُ فالأحياءُ في الصعقة

والأمواتُ في الشهقة من

كل رميمٍ ينسلون

حَدآتٌ جللتْها زرقةُ الزنك،

عظاءاتُ نحاسٍ وجرادٌ من برونز

ورصاصٌ من غبار البرق،

بحرُ طمطمتْ أمواجُه بالمعدن الوحشِ،

وكانت حيةٌ كونيةٌ من صخب الفولاذِ

تنصبُّ انصبابَ السيل،

تغلي وتفورْ

كلما قعقعَ منها مفصَلٌ أنبَتَ رأسًا

وانطوتْ من أرض آسيا رقعةٌ

وانعجن الأحياءُ بالصخر وبالرمل،

وسالت بالدم الوديانُ حتى اغتسلتْ

في عشها عنقاءُ روما في انتظار

اللهب الموعود كي تولد من هَبْوِ الدخان

في امبراطورية "الواسب"(٣) ورؤيا

القيصر الوحشِ الجديدْ

في زمانٍ يبدأ التاريخَ من أدواره الأولى:

وحوشٌ خلعتْ ما ترتديه من هباءِ الشعرِ

والأديانِ والحكمةِ،

لحمٌ يشتهي لحمًا ونهشٌ نافخُ الأشداق
بالعظم وأفلاذِ التراثات الرميمْ
كان وجه الشاعر(٤) الموشومُ بالعشب
ينادي صحبه في مزْغل الدبابة الأولى
وفي البارجة الأولى وفي أول برق
يتمشى في السماوات.
(وكانت تتعرَّى الأرضُ من غُزنةَ في درب الحرير
من بخارى وسمرقند إلى البصرة والقدس،
إلى الأحراش والأنهارِ.
(ما أوسعَ ما امتدَّ سماطُ الدم واللحم
أمام الآكلين!)

هل ترى يا أيها الشاعرُ ما ينبتُ من

عشبٍ على الأشلاء،

يحمرُّ ويسودُّ بجلد الميتين

فافتتح أعشابَ أشعارِكَ واقرأْ في الوليمة:

"أغني لامرئ واحدٍ، بسيطٍ متوحدٍ

بكلمة وإن تكنْ مفردةً إلا أنها جملةٌ شاملةٌ،

هي الديمقراطية،

بكل كياني، من الفرعِ إلى القدم أغني

لا الوجهُ وحده ولا العقلُ وحده

جديرٌ بربةِ الإلهام، أقول

إن الكيان كله أكثر جدارةً،

للمساواة بين الأنثى والذكر أغني

للحياة الزاخرة بالعاطفة والاندفاع والقوة

والبهجة، ولأقصى حرية الفعل الخاضعِ

للشرائع السماوية،

للإنسان الحديث أغني."

فتأمَّلْ سامر الإنشادِ يا شاعرُ

حدقْ.. أنت مشهودُ وشاهدْ

هل ترى "مقرطة" القتلِ تسوِّي بين أنثى وذكر!!

واستمعْ تحت الجنازير لما يفهقُ من غرغرة القتلى

ولملمْ بهجةَ الفولاذ في اللحم،

وحدقْ.. ها هو السامرُ مرعىً لجواميسَ

وأفيالٍ من الصلب الصقيل

كلما تعتعها النفطُ استحرَّتْ ورَغَتْ وادَّافَعَتْ

وانتطحتْ قطعانُها

فهي شتاتٌ من لغاتٍ

أقبلتْ — عودًا على بدءٍ —

إلى أسوار بابلْ

والبساتين التي يحملها الغيمُ على مقصورة البرج.

وقد مرتْ — إذا ما كنت لا تعلمُ —

قطعانُ لغاتٍ وجيوشٍ،

زَوْبَعتْ رملاً ونيرانًا ومرتْ في دخان من دخان..

٢٠٠٦/٣/٥

إشارات

١- الشاعر هوميروس.

٢- من صيحات الوحوش السفاحين من الصرب في مجازر البوسنة والهرسك، في القرن العشرين، ونشرتها جميع الكتب والصحف التي تابعت أخبار هذه المجازر وقد شاعت بين غوغاء الجهلة في العصور الوسطى مقولة أن تحريم الخمر ولحم الخنزير عند المسلمين بسبب أن نبيهم "ماهوميت"، سكر بالخمر فأكلته الخنازير التي كان يرعاها وقد ذكرها ليون دي كاستري في الكتاب الذي ترجمه "فتحي زغلول" بعنوان: "صورة الإسلام في العصور الوسطى".

٣- الواسب: اختصار لأوائل الحروف من كلمات: الأبيض الأنجلو سكسوني، البيوريتاني، وهم الرواد الأول لانتزاع أرض الهنود الحمر وتكوين الولايات المتحدة الأمريكية، وهم الطبقة العليا رغم امتلاء الولايات بعد ذلك من جميع الأجناس.

٤- الشاعر والت ويتمان، والقصيدة هي أول ديوانه: "أوراق العشب"، ترجمتها عن طبعة ١٨٩١.

تجليات الراقص

هَفَتْ وارْتَخَتْ من حزامِ الحريرِ سما زرقةٍ
حبكتْها دبابيسُ من ذهبٍ وفتائلُ ضوءِ مهدَّبةٌ
ونجومٌ من الجمرِ منتثراتٌ بأطرافِ
أكمامهِ وقطيفةِ خفيه،

-: فلتر تجلْ ما تشاءُ بإيماءةِ الصمتِ أو
دورانِ الخطا وانفراطِ الإشاراتِ ..
أعضاؤكَ الكرمُ واللفتاتُ العناقيدُ،
مَدَّ يديهِ إلي حمأ من خيالٍ وطين
وقلّب كفيهِ فاشتبكَ الظلُّ والنورُ
وارتعدتْ في مفاصلهِ نشوةُ السريانِ
وتقطيرِ ذوبِ خيالاتهِ قطرةً قطرةً
في جداريةِ الطينْ:

للطينِ لذّةُ مصٍّ أناملهِ الراعشاتِ بوقدةِ

الهامها الحيِّ ،

أبسطةٌ وزاربيٌّ رملٍ بهِ من كهوفِ
البروقِ وأقبيةِ الرعدِ مرعى وعول.
سيركضُ من خلفها الهمجُ الشعراءُ

إذا انفلتتْ للأعالي،

وفي رحمِ الرملِ تُشوى شظايا رخامٍ
على هيئةِ الطيرِ والحيوانِ ويمتدُّ
سربُ الخلائقِ من كلِّ زوجينِ،
والبحرُ يفغرُ شدقيه منتظرًا موعد الماء،
-: فلترِ تجلْ للسهوبِ خطا الريح حتى تميل الغصون
بأحمالها، وارتحلْ ناقةَ الغيمِ واملأْ
رواحلها زبدًا رابيًا يمنحُ الطينَ ألوانه،

هفهفتْ في فضاءاتِ أكمامهِ لغةُ الدورانِ
ومعنى المعارجِ

وانقدحتْ نشوةٌ من سُرى الليلِ
عبرَ التواريخ:
نمنمةٌ من دمٍ يتقطَّرُ بين
زخارفها الدمع،
نمنمةٌ يتوقَّدُ إشراقها
بالفتوحِ الخفيةِ للذاهلينَ السكارى،

ارتحلْ جبلاً وتداً للكلامِ،
ارتحلْ جبلاً وتداً للصدى ..
سوفَ يركضُ بينهما كلُّ صوتٍ بأوزانه
.. كلما بُّدلَ الصوتُ إيقاعَ خطواتهِ
واشتقاقَ هواجسهِ أو تراحبَ أو
ضاقَ خطو الصدى زحزحَ الجبلان
مكانيهما كي يظلَّ الكلامُ بحال جبلّته ..
هكذا .. سوفَ تخطو جداريةُ الطين بينَ
معارجها وتدورُ الكواكبُ والأرضُ،

ألقى من الظلّ ما يشبهُ الطائرَ المتوحّشَ،

أغضى وأتلع،

وانصبَّ في دوران الخطا،

وأزاحَ عن العينِ غرَّتهُ،

فالجبينُ تشعَّع فيه بوارقُ إلهامه،

وانثنى واستقامَ فكانَ هو القوسَ والسهمَ،

والْتفَّ في لفتةٍ، ثمَّ أقعى كما يرتمي

الطائرُ المتوحشُ في دمهِ،

ثمَّ قامتْ قيامتهُ فاليدانِ الجناحان،

فلترتحلْ أفقًا وسبيلاً تدمدمُ بينهما

بقطيفة خفيك،

واقدحْ بعينيكَ شظيةَ برقٍ تمورُ به الروحُ

علَّ جداريةَ الطينِ تنحلُّ أختامها

ومغاليقُ أسرارها،

لفتةٌ وإشارةُ كفين .. وامتلأ البحرُ والجرفتْ

كائناتُ المياهِ إليهِ

وفاضَ السبيلُ بسعيِ الشبيهِ إلى شبههِ

والغويِّ إلي نصفهِ

والنقائضِ للهتكِ والفتكْ،

أنتَ على مرصدٍ .. فتنظّرْ رجوعَ الخلائقِ في

غسقِ الرقصِ من سعيها أمماً أمماً مثلما

انفرطتْ أول الرقصِ من هفهفاتِ الفضا بين كميك،

درْ وانتفض نشوةً وذهولاً

وأشرعْ – على مشهدِ الطينِ في فيضهِ الحيِّ –

أعضاءكَ الملهماتِ

وقلّبْ جبلّتهُ

وتفقّد سلالة قطعانه ..

٢٠٠١/١١/٢٩

وجوهًا يتنطّفُ الدم

قصيدة ليس من طبيعتها أن تكتمل

الراحلونَ همو أم أنت مرتحلُ

أم هم إقامةُ ظنّ في مرابِعِه تسْفي الرياحُ

فلا صيدُ النميمةِ يمتدُّ الكلامُ به،

والصمتُ مَحضُ شتات الروح في دِمَنِ الأحقابِ

يا ملكًا يبكي على عتبات الشعرِ:

هل نَغَمٌ إزميلُه دمُه؟!

هل طينةٌ جُبِلَتْ تفعيلةً لُججًا والبحر مرتَجَلُ:

هذي خرائبُ ما تحوي المعاجمُ مما خَلَّفَ السَّلَفُ

هل أبجدِيَّتهُمْ كانتْ ستعصفُ صلصالاً إلى

الأفق الأعلى

وقبل بدايات الرؤى انْعصفوا!!

هل هذه لغةٌ

أم أنتَ آخرُ لَغْوِ الناطقين بها

أم أنتَ من ظمأ الأجدادِ همهمةٌ قبل الكلامِ

وبرقٌ في سلالة طينٍ سوف ينكشفُ!!

فاخْرجْ أميرَ بلادٍ بِتَّ تنكرها

واخرجْ أميرَ قوافٍ

من نشائدِها يَرْفضُّ وحيُ هجاءٍ طالما

اسْتَتَرتْ من شمسه الجيفُ

واسَّاقَطَ الكفنُ المعقودُ من خِرَقِ الأحلاف ألويةً:

مجدٌ ولا شرفُ،

والشعبُ تحت عراءِ العارِ يرتجفُ!!

قد يَسْلَمُ الترفُ المأبونُ في زمنٍ دَيُّوثُه الصحفُ.

ها أنتَ تحت سياط الكهرباء وبين القيد والظلماتِ السودِ

— : تعترفُ؟

— : .. إن الكلابَ ملوكٌ، والملوكَ دُمًى،

والأرضَ تحت جيوش الروم تنْجرفُ ..

فاخرجْ طريدَ بلادٍ كنتَ تحرثُها

حَرْثَ العبيدِ،

وغادرْ إرْثها مدنًا مجدورةً بعشاش النملِ

ساطعةَ الفجرِ الكذوب بكلْسِ الزيفِ والسغَبِ

وامسحْ جبينكَ بالنسيان وابْتَدِرِ المنْهَلَّ من

دمكَ النضّاحِ:

راعفُهُ من بعد ما عَصَبوا عينيك يُنْتَطَفُ

فالعينُ يملؤها من ومْضِهِ السَّرِبِ

أشباحُ ما عشقَ المشبوحُ من بشرٍ وَلَّوْا ومن كتبِ:

((عَدَّاسُ)) يمنح مجروحًا على ظمأٍ هَدْيًا من العنبِ

والكرْمةُ انفرطتْ ظلاًّ ومَسَّ ندًى

والجرحُ ملحُ دمٍ.. فالضوءُ بارقُ وَمْضٍ في

لعالعه تهوي مخايلُ حنّاءٍ وصرخةُ آياتٍ

تجلجل تَثْويبًا ومرْحمةً في صوته الرَّطِبِ.

أفقُ النَّجيعِ، ورسٌ من تَشَهُّدِهِ

رَتْقُ الغيومِ ورجْعُ الماءِ في السحبِ

كان الحسينَ..

وكانتْ خطوةُ الشجرِ المكتوبِ في دمهِ

تَهوي.. تُألْقَفُ نسغًا من براعمِهِ.

شيخ القوابل من ((دِلْفي)) إلى شَغَبِ الغوغاءِ

مُرْتَهَنٌ، يُصغي إلى صخب الأمواج عَلَّ صدّى من

بوقِ موْعدِهِ

يَدْوي فيطلق أسْرَ الروح والجسدِ:

نُبْلَ الإشارة ضوءٌ شَعَّ من يَدِهِ

((الشَّيْكُرانُ)) بكأس السمِّ ذَوْبُ ردىً

يصفو التذكّرُ في مسْراهُ

فالأزلُ المطمورُ منكشفٌ في شرفة الأبدِ

زَحْزَحْتُ في هلَعِ التعذيبِ قَيْدَ يدي

فاشْتَدَّ .. وانْهدمتْ – في قطرةِ عَلقَتْ تحت الجفون –

سماء الله .. فالْتقفتْ رأسَ القتيلِ جروحُ الصَّدْعِ في كبدي.

والشيخُ يرقدُ في خُرْج الأتانِ

وعِدْلَ الجثّةِ انْهَدَلَتْ أسفارهُ،

فمتونُ الشرح صامتةٌ،

والفقْهُ يَدْمَعِ في راحاتِ ((قرطبةِ))

ليستْ تُكَفْكِفُه إلا سياحةُ ((محيي الدين)) بين

فتوح الروح واللهبِ المكْنون تحت جلالِ الخلقِ

من شَرِقٍ بالرملِ أو بهطول الماء مُتَّقِدِ

شقّتْ يداهُ قماطَ الموتِ فانْدلعتْ نارُ البداوةِ في

رَقٍّ "المقدمة" .. استَصْرَخْتُ ملحَ دمي:

هذي الدماءُ إلى يوم القيامةِ؟!

قال "النفَّريُّ": أجلْ

((يا رُبَّ همٍّ تبيتُ الليـــلَ ساهرةً

عينُ الفـــتى مـــنه والآراءْ في خُـــلُفِ

إنْ رامَ هُدْءًا أثارَ الهـــمُّ هَـــدْأتهُ

أو رامَ وقْفًا على الأشـــجان لـــم يقِفِ

حيران لا يتهـــادى بين عزْمـــته

إلا عمى مثل جُنْحِ الليلِ ذي السُّدُفِ))

فاخرجْ بعريك لا تأملْ ولا تَخَفِ

وادْرَأ بيأسك ما كان الزمانُ به يُغوي ويُوهِمُ

واركضْ في هجيرِ سرابٍ طالما التمعتْ منه

السَّادِرُ أعلامًا مرفرفةً في الأفقِ

يا ملكًا يبكي على عتباتِ الشعر:

هل نغمٌ إزْميلهُ دَمُهُ!!

واركضْ.. فإن فلاةَ الروح واسعةٌ

والموتَ ظَبْيُ قوافٍ ربما انْفَتَقَتْ منه الجوارحُ

في عينيك فانْهمَلَت هذي الوجوهُ

-: فهل هذي الدماء إلى يوم القيامة؟!

قال الراحلون: أجَلْ..

فاعرُجْ إلى شَفَقٍ دامي السحائبِ

واهْطلْ كلما انْتثرتْ بين السلاسِلِ

والجلادِ

قافيةٌ..

حجز لاظوغلي ١٩٩١/٣/١٢

معتقل طرة

رملة الأنجب

١٩٩١/٨/٧

إيقاعاتُ الوقائع الخنوميّة

" اللهُ يعلمُ أنى لا أحبكمـــو

ولا ألومكمو ألاّ تحبّـــوني

لوتشربون دمي لم يَرْو شاربُكم

ولا دماؤكمو جمعا تروّيني "

- ذو الأصـــبع العـــدواني -

كيفَ هناك :

يَتَنَخَّلُ الوطنُ فِتْيَتَه الطالعين من عكارةِ
البلهارسيا وصَمَمِ الأمية وحيوانية الجوع
ورهبةِ العبيد وطاعةِ الإماء وجبروتِ الوحشِ،
ثم يَنْتقي :

أجسادٌ قُدَّتْ من صخرةٍ واحدة على قالبٍ وحيدٍ
فلا استثناءَ في شيء
وجوهٌ مسْفُوعَةٌ بصُفرة الشمس المعتلَّة
وغبار الأحذية

عيونٌ تختلط فيها حُمرةٌ بصفْرةٍ براووق البُنِّ المتخثّرِ
ولا يشبهها شيءٌ إلا عيون الكلاب الميتة في
مجرورِ النهر ومستنقعات النَّتَنِ الدهريِّ
كأن " خَنُوم (١) " كان يدَّخِرُها في فواخيرِه الأزليةِ
حرسًا سرمديّا لفراعنة كلِّ الدهور
وسوى خنوم لا آلهة هناكْ !!
-: ما الأسماءُ الصريحةُ لرفاقك الإرهابيين :
سقراطُ و ابنُ رشد والسَّمَنْدلُ (٢) والنفريُّ
وأورفيوس (٣) والسعلاةُ (٤) .. إلى آخرِ ما وجدْنا
في أوراقك من أسماء حَرَكيَّة ؟ !

- : ... ...

- : سنعرف كيف تنطق حين نواجهك باعترافاتهم
صوتًا وصورةً ..

وحين وُوجِهْتُ بتقارير المخبرِ أفلاطون،

وجدالاتِ التهافُت ومناهج الأدلّة ، ونارِ الطقْسِ

المبدئِ المعيدِ، وبشارةِ الإيذان بالوقتِ،

والملابسِ الداخليةِ لأوريديكي (*) وَزمْزَمَةِ

السِّفادِ في بوادي الجنِّ،

وسمعتُ تسجيلاً لصرخات الهلع من زرقاء اليمامةِ

اعترفتُ بأدَقِّ التفاصيلْ . .

العنكبوتُ كأنّه وَرَلٌ (٦) يدبُّ إلى مراعي الضأنِ،

خيطٌ من شعاع الشمس يقْطعه إلى نصفين،

فالأطرافُ تنبض بالدم القاني وتترك نقشَ

رقصتها الذبيحةِ في سقوف الأرضِ.

نسجٌ هلهلتْه الريحُ في أفق البلادْ

كان المماليكُ العتاةُ الأقدمون المحدَثون

يَتَنَزَّلون خلائفًا من هَيْلمان الجوع والفوضى،

وفي أفق المدينةْ

نافورةٌ تعلو وتَنْفَسِحُ امتداداتُ الهواجسِ في

انتشار رمادها في الريحِ،

والأجواءُ تَبْرُقُ،

هذه الشمطاءُ عاريةٌ .. تفحُّ جدائلَ الدخّان والحيّاتِ

هذا المغْزَلْ الكونيُّ من نُذُر القيامة أمْ
هو العصفْ الذي تنْحلُّ فيه الروحْ والرؤيا
وتَنحَلُّ البلادْ
جميزةً تَتَغَاصنُ الأهوالْ والكسفُ المضيئةُ والظلامُ
بشكلها الممتدِّ في الآفاق ؟!
هل كانتْ بلادَك أمْ جنونَك – هذه – ؟!
أم أنتَ من فجرِ الخليقة لازِبُ الطين المقدَّرِ
للغوايةِ والجنونْ
متقَلِّبُ الأشكال بين يديْ " خنومٍ "
طالعٌ من وَقدْةِ الفاخُورة العظمى،
ومُصْطَفٌّ صفوفًا كلما بَلِيَتْ أعيدَتْ في بَراحِ
العصفِ والخلقِ الرَّميمِ المسْتعادْ ؟!
-: اخلَعْ ثيابك ..
(لفحةُ الخوفِ المشَوَّشِ بالحياءِ وزمهرير الفجرِ،

صفان خنوميان تلمع في أكفّهما عصيُّ الخيزْران ،
وحارسان يصلْصلان برجْفة الجنْزيرِ :
كلبٌ في علوِّ البغل يُقعي، آخرٌ في
هيئة الوحش الخرا فيّ اشْرأبَّ ..)
أدرْ إلى الجدران وجهَكَ .. لا كلامَ ولا تلفُّت ..

(لاكلام سوى دَويٍّ الإرْث من
ليل القراءةِ في دم التعذيبِ، والهوْلِ المؤبَّد
في بلادك والخنوميِّين في منفى التواريخِ التي
أبقَتْ دم القتلى يبيدُ ويُستعادْ.
هل كلُّ مجدِك يا خنومْ
هذي الدُّمَى الفخّار تذْروها الهشاشةُ في
رياح السجن والتعذيب من جيل لجيلْ
حشدًا يكسِّر بعضُه بعضًا فلا يبقى سوى
دِمَنِ الوجوهِ ورَهْزَةِ الغوغاءِ والأممِ الطلولْ !!)

حَدَّقْتُ في وسخ الزجاج فروَّعَتْني نظرةُ "الشخص"

المحدِّقِ،

عنكبوتٌ ملهمٌ في الركن يبني ثم يهدمُ

في انتظار الصَّيْدِ.

(أيُّ فراشةٍ سترفُّ أيُّ ذبابةٍ ستحطُّ مثل

دمي المخثَّرِ فوق منسوج الجوارح والعروقْ !!)

في نوبة البوق النحاسيِّ اسْتجاشتْ رهبةٌ بين المفاصلِ

-: إنه "الباشا" وبوقُ الصبح في "عَرَضِ التّمامْ".

شعبٌ خنوميٌّ ، وجيشٌ مشْتَرى من صيد نخّاسين،

والباشا يقدِّم في رَطانتَهِ جَلائبَهُ (٧) :

الطواشيِّ، القضاةَ المخبرين، السادة الخصْيان،

أعيانَ التَّسوُّلِ، جلْجَلُوتَ المنْبرِيّاتِ الزَّواني،

البَزْرَميطَ (٨) المدَّعي ..

درعٌ من الشرق المفتَّتِ

والسيوفُ مباعةٌ كيْ يملكَ الغربُ الرقابْ

بين الرُّمَيْلَةِ وانفساح القلعةِ انتشرتْ وحوشُ الطير ..

(إن دم الذبائح يستثير الطير قبل ملاحم الموتِ)

البنودُ على رءوس الجندِ

(هل يدري الخليفةُ أن هذا السيفَ مُرْتَهَنٌ : مَعَهْ

زمنًا، وأزمنةً عليه !!)

-: طأطئْ ولا تنظرْ وراءَكَ واحتبسْ أنفاسَك ..

(الزمنُ انفجارُ الرعبِ .. هل سيمزِّق الكلبان

لحمَكَ من وراءِ أو أمامْ !!)

في الركن .. كان العنكبوتْ

من مغزل الدَّأبِ المجنَّحِ بالغرائز وانتظار الصيد يبني ثم

يهدمُ

(هذه كانتْ حدودُ "العبقرية في المكان":

سجنٌ وجلادون، أدْوارُ الخنوميين ما بين

الهزائمِ والخرابْ

في الأرض من أقصى غواياتِ القناصلِ وابْتياعِ

السيفِ حتى الموتِ في خَتْلِ الكلامْ.)

ليلٌ وكأسٌ من دم الموتى تَرُبُّ به البلادُ رفاتَها،

ورخامُ عرّافين ينشر من جعارين الكتابة جيشَه السحريَّ

فالطينُ المقدَّرُ فوق نارٍ من تعاويذِ الرُّقى يغْلي

وينضجُ لحمهُ الدهريُّ جارحةً فجارحةً

فَيَصْطَفُّ الخنوميّون

(هل يدري الخليفة أن هذا الحشدَ مُخْتَلَقٌ

وأن السيفَ مرتهَنٌ: مَعَهْ

زمنًا، وأزمنةً عليه ؟!)

الشمسُ جمرٌ ذائبٌ في أعين الموتى،

فلا استَلموا ولا طافوا ولا انْتَسَبُوا لزمْزَمَةِ السلالةِ

فالجزيرةُ صَفْصَفٌ والرملُ مشويٌّ،

سرابٌ من دم الفصحى يرفّ على مياه البحرِ،

ترتيلٌ من الملح العصيِّ يؤُجُّ في لحم المصاحفِ

ثم يَبْرُقُ في انْدلاع الحبرِ

ثم يدبُّ في رمم القراءات الحريقْ

ويعفْرِمُ (٩) الباشا ويضحكُ،

ثم يبتعثُ البريدَ على ظهور الخيل بالبشرى

(فهل يدري الخليفةُ أن هذا النصرَ أولُ ذَبْحِهِ !!

ضرَيَتْ (١٠) كلابُ الصيد فانتظر المواسِمَ ..)

عَفْرَمَ الباشا وقَهْقَه ..

والخنوميّون محضُ فكاهةٍ حُبلى بشمسٍ

من صديد الجرح، ينسلّون عبر البحر والصحراءِ،

ينتشرون في جوع القرى كالقَمْلِ والبلهارسيا

والنهرُ موالٌ من الدمع المقَطَّرِ في الظلامْ ..

ضَرِيَتْ كلابُ الصيدِ ..

صيادون من كل البلاد تَحلّقوا

فوق الحشايا والزرابيِّ الدِّمقْسِ:

حثالةُ الماسون ، تجارٌ، جواسيسُ القناصل،

باعةُ الوهْمِ ، السماسرةُ،المرابون، الحجيجُ

وثُلّةُ التجوال بالسم البطيءِ،

وشيشةُ الباشا تكَرْكُر أو تُعَفْرِمُ تحت تلِّ الجمرِ

والتّمباكِ وهو على الأريكة غائبٌ في

حلمه الأميِّ بالجبروتِ والسلطانِ . .

حاشيةُ الحثالة في طقوس الصيْدِ هَرّاجون بالفوضى

ومحبوكون في لغْوٍ من الزور المضَفّرِ،

إن فيض السوق منْدَفِقٌ:

طرابيشْ العبيدِ، ويَشْمكُ السَّبْي البغيِّ، ومَسْبَكُ
الفولاذ، والبارودُ، سمسرةُ التراجم، خطةُ
الحربِ،
الطواقم من قيادات الكتائب والسفائن ..
جنةُ الإستبرقِ البرسيمِ، والخيلُ المطهمةُ الصهيلِ،
وطينةُ الوادي اسْتجاشتْ تحت شمس الجوع والخَبَلِ
الخنوميِّ ..
الحثالةُ والجلائبُ والجواسيسُ القناصلُ قادةٌ
للزحف،
تخبو شيشة الباشا فيُهْرَعُ أمردٌ بالجمر والتمباكِ
وهو مُعَفْرِمٌ ومكركرٌ بإشارةِ الحرب الدنيئة ..
والخنوميُّون أوْبئةٌ وجوعٌ بين وقْدِ الرمل في
آسيا وبين الثلج في البلقان ..
يا ربي أمانْ ..

كانتْ جعارينُ الكتابة والرُّقى ينْحلُّ فيها السحرْ والنفْثُ

الخنوميّ:

الفلولُ وآخرُ الموتى وقطعانُ الخنوميين ترجع من

ظلام النصر والفوضى إلى الوادي وماء النهر

ثم تُعيدُ سيرةَ طينها دهرًا فدهرًا ..

آهِ يا ربي أمانْ ..

-: الْبسْ ثيابَ السجن، لا تنظرْ وراءَكَ،

لا كلامَ ولا تلفُّت ..

(لا كلامَ سوى دويٍّ الإرْثِ من ليل القراءة في

دم التعذيب والهوْلِ المؤبَّدِ في بلادك والخنوميين

في منفى التواريخ التي أبْقَتْ دمَ القتلى يبيدْ

ويُستعادْ..)

معتقل طرة ١٣/٣/١٩٩١

رملة الأنجب ــ القاهرة ٢٦/٤/١٩٩٣

إشارات

١- خنوم : إلة صناعة الفخار وتشكيل الطين في مصر القديمة .

٢- السمندل : حشرة خرافية يقال إنها تعيش في النار .

٣- أورفيوس : شاعر أسطورى من تراقيا كان لشعره وموسيقاه أثر سحري على الكائنات ، تشكلت باسمه نحلة وتنظيمات سرية من أهمها جماعات الفيثاغوريين .

٤- السعلاة : حيوان خرافي متوالد من سفاد الجن مع الحيوانات .

٥- أوريديكي ـــ أوريديس : حبيبة أورفيوس .

٦- الورل : حيوان صحراوي زاحف، يقول البدوأ نه يلف ذيله المكون من عقد قوية حول سيقان الأغنام ويرضعها حتى يدميها .

٧- الجلائـــب، الجلـــب: العبيد والمماليك المجلوبين من أسواق النخاسة.

٨- البزرميط : عامية شائعة تعني خليط البشر المهجنين

الذين لا يعلم لهم وطن أو أصول .

٩- عفرم يعفرم عفرمة : اشتقاقات شخصية من لفظة

الاستحسان التركية " عفارم " .

١٠- ضريت : أصبحت ضارية متوحشة .

درِعيَّة مديح

تركتم دمي سَبْيًا .. فليس يُجيرُه
عدوٌّ يُداجي أو صديقٌ يصاوِلُ
وحُمَّ قضاءُ الليل ظلمًا وظلمةٍ
وقد حُبِكَتْ دون الفرارِ المخاتلُ
فبِتُّ على ظنٍّ دمائي توُجُّهُ
وتذروه في الريح البروقُ الصّواهلُ
يقلبني شكٌ ويأسٌ مخامرٌ
وتنحتُ صلصالي الرجومُ الهوا طلُ.
فَتَشْخَصُ هُولاتٌ من الرعب شُزَّرَتْ
ولُفَّتْ على الأعناق منها الجدائلُ
أموت وأحيا لحظةً بعد لحظةٍ
وتصرخُ في لحمي الظُّبا والذَّوابلُ
أهيِّئُ أكفاني وأصرخ ذاهلاً :
شربتَ سرابَ العمر فيما تحاولُ !!

فكلٌّ بلادٍ ترتضيـــها إقـــامةً
فجيعتُـــها فيها، ومنها النوازلُ

هزائمُ جلادينَ تزهو سجونُهم
وتعلو على هام العبيد المقاصـــلُ

فـــأيٌّ رثاء يرتضـــيه مُـــرَزَّأٌ
وأيٌّ مـــديح تَرْتجيه المـــزا بلُ !!

نزلنا إلى الأرض التي قام دونَـــها
من الثـــأر إرْزامٌ وهـــامٌ مـــوائلُ

وآفاقُ أجداثٍ وهول تَنَظَّـــــرتْ
لـــــوازِبَ طينٍ تصْطفيه القـــوابلُ

فيبدأ بَدْءُ الأرضِ نارَ قيـــامـــة
زفيفُ تَعَاليـــها الـــبروقُ الجـــوائلُ

تضيءُ وتعلو ثم تَدوْي رعـــودُها
وتركضُ في العظْمِ الرميمُ الزلازلُ

ويستَفْتحُ الهَرْجَ النُّشوريَّ نافخًا

ببوقاته الشعرُ الغـــويُّ المعـــا ظِلُ

فتعرفُ ما تبغي وتنكرُ مــا ترى

وتسعى على هْولِ السراط القبائلُ

صفوفًا من الموتى يَرُبُ رفَاتَـــها

وأكفانُها رجْعٌ من العصف شاملُ

فتهوي أعاليها وتعلو وهادُهـــا

وينطق مكظومٌ وتَبــكي الشـــواكلُ

فَشُدَّ بأوتار المــدائح نَغْمـــــةً

يرتُلُها الـــدمـــعُ الحَـــرُونُ المناضــلُ

- ١ -

أيا جارتنا ..

كنا من الرمل نطفةً

وقبضةَ جمرٍ في حديث مُرَجّمِ

ورؤيا سلالات من الشعر أوْقَدَتْ

بأوتادها الأسبابَ.. فالأفقُ ملْعَبٌ

يطير به صقرٌ من الطين والدَّمِ

يظلله بيتٌ من الكون شاسعُ

أليفُ الذُّرى بالضوءِ والريحِ،

دافئٌ بمجهوله المجهولُ،

والسرُّ ساطعُ

يخط خوافيه عُلُوٌّ رَمِيَّةٍ من البرقِ

تعلو في هيمٍ مُرَقَّمِ

ويا جارتا ..

كنا من العشق قبلةً

تطاوَلَ في راووقها الدهرُ سكرةً وأرضَ

غوايات ودرعًا مُفاضَةً تَحَدَّرُ

من جيلٍ لجيلٍ، أديمُها

صفائح مسبوك من السعي ينتمي

لعرقِ عروق الأرض من عهد آدمِ

هي الدرعُ..

ليس الكونُ إلا مُنَمْنَمًا

من النقش والتصوير تُرغي رسومُه

وتُزْبِدُ مخضوبًا من الوشي والصُّوَى:

طِباقُ سموات أضأن كواكبًا، وأنجمُ أفلاكٍ

سَرَيْنَ، وقفرةٌ من الأرض يعلوهَا

نجيعُ الملاحمِ

تطيرُ شراراتُ السيوف تشقُّها

وتحفر في قلب الصعيد المدمَّمِ

فجاجًا لمن يسعى، وسحرًا لمن يرى،
ونبعَ مياهٍ من صفا الصخر فُجِّرتْ
وسالت مَسيلَ النارِ والشعر والرؤى
ووَقْدِ جنونٍ في غرامٍ مُكتَّمِ،
ووِدْيانَ يَخْضُورِ من النَّبْتِ بازغٍ
وأضغاثَ أعشابٍ وألفافَ غَيْضَةٍ
وقطعانَ رعيانٍ ونقعٍ تكَشَّفَتْ غَواربُه عن
هجرةٍ بعد هجرةٍ .. فأخلاطُ أعراقٍ
وأمشاجُ نطفةٍ
وهُجْنَةُ أوْشابٍ وجوهرُ رؤْيةٍ
تُفتِّح في ليل الكلام المحَمْجِمِ
أوائلَ أشكال الحروفِ..
فهل سَرَتْ وعولُ مسامير الكتابةِ،
غَرَّبتْ، وشَرَّقَ من وادي الملوك مُحَفَّرٌ من
الطير والحيات حتى تلاطمتْ على الدرع من

ماء المرايا غمامةٌ ورُقْيَةُ ترْياقٍ بكأس مسَمَّمٍ؟!

ظمئنا فلم نشربْ؟! أم المشهدُ الذي نرى سحرَ

فوضاهُ دبيبُ قيامةٍ؟!

أم الدرعُ من حَتِّ الدهور تقشَّرتْ

زخارفُ رؤياها..

فشفَّ مجازُها بحَيْرةِ مرموزٍ ومرمرٍ هائلٍ

من الوحش والثيران يُرخي جناحَه ويُقعي على

باب القيامة ناظرًا إلى الغيب والأفلاكِ يُحصي بمقلةٍ

من اللؤلؤ المكنون والشَّذْرِ أمةً تجيءُ وتمضي

بين موت ورجْعةٍ؟!

أم الدرعُ مَذْخُورٌ من الموج مُقْلِعٌ بمُسْتحصَدِ الرايات

حربًا وغيلةً

وخَتْلَ خياناتٍ وقَتْلَ حُبالةٍ

تُريغُ إلى خوفٍ وظنٍّ ومَبْهمٍ؟!

- ٢ -

هي الدرعُ ...

هل شيءٌ سوى الدرع شاهدٌ

يشعُّ بوجه الله مجْلًى وخِلْقَةً

وهل حَلَقُ الفولاذِ إلا مجرَّةٌ وتَدْويرُ أفلاكٍ

وترصيعُ أنجمِ؟!

هي الجوهرُ الأبقى،

هي العنصرُ الذي تَحدَّرَ منه الشكلُ

في كل صورةٍ.. فرفرفَ فوق الغمر منها مُقَدَّرٌ

من الخلق والتكوين فالعرشُ قائمٌ،

يجلجلُ مَتْنُ الروح..

كلُّ قراءةٍ بلادٌ وتأويلٌ ونارْ كتابةٍ

فيا جارتا..

هل هذه الدرعُ فكرةٌ تَأَوَّلها الإبداعُ

من لحم معجمٍ،

أقامتْ بمكنون المدائح ثأرَها وترجيعَها المكظومَ في

كل آيةٍ تجلجل في صمت الرّواق المهدَّمِ؟!

متونًا من الفولاذ.. حَفَّتْ شروحَها وشعَّتْ

تقاليبُ النسيجِ المنمنمِ

وذَيَّلهَا من كل عصرٍ مُشَطَّبٌ من الطعن وانْهلَّتْ جراحٌ

قديمةٌ تجددها في كل رَهْجٍ بلاغةٌ هي الزحفُ

والإدبارُ والبعثُ والبِلى وخَصْفُ أضاليلٍ

وكشفُ مغَيَّبٍ من العار، والموتى فرارًا ورهبةً،

وجرحُ شهيدٍ لا يجفُّ، وصرخةٌ من النقش

تعلو في خرابٍ مُحوِّمِ

فيصحو من الزِّنْجَفْر ينبوعُ خضرةٍ من العشب والنوَّار

يسرحُ نحلُها، ويسرح عشابون أهلُ كهانة

وطبّ وأسرار وسحر كتابة يطير بها الجعرانُ

والصلُّ يلتوي مُذَنَّبَ مرجومٍ من الجنِّ،

ماردٌ من الإنس يشوي الحوتَ في عين كوكبِ

بعيد ويرعى الخيلَ في حَرْج ظلمة

ويشحذُ نصل السيف فوق مُسنَّن من البرق

والأنواءِ يلقطُ جمرةً يثقِّبُ مزمارَ الفضاءِ المُقَسَّمِ

على سلم الأنغام في الكون دائبًا تشدُّ

رياضيّاتُ أدوارِ رقْصهِ

بناءَ سموات وكرَّةَ مغْزلٍ ورعدةَ مكظومِ النشيدِ بأعظمي

ويا جارتا..

هذي هي الدرعُ فانسجي

مدائحَ فولاذٍ مُرنٍّ منغَّمٍ..

- ٣ -

على الدرع كانت لأمَةُ الحرب ثُلّةً
مُعمَّمَةً بالموت صبرًا وحسْبَةً،
وظلٌّ عُقابٍ تحته الأرضُ ليِّنٌ من الطين
مطبوعٌ بصورة غابرٍ

من السعي:
ورّاقون تحت مُقَرْنَصٍ من المرمر المكتوبِ،
خيلٌ تحمَّلَتْ سفوفَ بهارات
ومخطوطَ حكمةٍ
وشرحَ نصوصِ الفتح صلحًا وعنوةً،
وثلةُ صيادين يُخْفون خلسةً أمام جيوشِ الغزو
أعشاشَ قُبَّر ومَزْحَفَ حياتٍ
ومَرْعى قَنافذٍ،

وحاملٌ أختام الملوك مُقَلِّبٌ بكفيه أسماءَ

العصور،

وراجلٌ يقود حصان الريح هَوْجاءَ أو صَبًا رُخاءً،

وحفَّارون في الشكل غامروا إلى مكْمن

الصلصال

حلمًا ونفْخَةً

لعلَّ ذراري الروح تصطفُّ أمةً

تغادر مَتْنَ الدرع.

بحرٌ، ونائمٌ من الكَلَل الدهريِّ يصحو لغفْوةٍ

يُرَجْرِجُهُ بحرٌ من الوجد قُلَّبٌ

وصبوةُ مكظوم من المدْح

نافخٍ بأبواق مداحين

جُنّوا بما رَأوْا.

رملة الأنجب

١٩٩٢/٦/٧

توبة رجوع

ثَقُلتْ عليَّ عباءةُ الدم والرمادِ
وثَقّبَ الرملُ الطريُّ جروحَ أوسمتي
بمعجون النياشين الصديئةِ والرميمِ
الهشِّ من عظمٍ وفولاذٍ،
وكانت في فجاج الروح قافلةٌ،
وسبعةُ إخوةٍ ماتوا صغارًا،
والتميمةُ فوق صدري سبحةٌ من حَبٍّ ما
حصدَتْ يدُ الأعمام والأخوالِ:
جوهرُ حنطةٍ، خَرَزٌ من البرسيمِ،
والرزُّ المقشَّرُ ، كهرمانُ العَدْسِ،
يُؤْبُؤُ حبةٍ سوداءَ، والذُّرَةُ الرفيعةُ،
والْتماعُ السمسمِ المبثوثِ،
هَوْدَجُ ناقةٍ ويدان يقطر منهما العُنَّابِ والرِّيُّ
المقطَّر في حُشاشةِ عاشقٍ ..
ثَقُلَتْ علىَّ عباءةُ الدمِ والرمادْ

والصبحُ يَجْلو في عظام المحجرين مشاهدَ الجسد الذي

يَرْفو فتوقَ الروح ثم يُنَفِّر الطيرَ الجواثمَ في

مُنَمْنَمةِ التذكر ثم يعلو قبةً من أغصن

اللَّبخِ المسجَّع باليمامْ

واللهُ من خلل الغصون يمدُّ شمس يديْه

ينسج خضرةَ الذهبِ الحريرِ،

يشدُّ قوسَ الأفق، يرمي سبعةً

من أعطياتِ سهامه:

نَفْحَ الصَّبا قبل الغروبِ، مسابحَ الأسرابِ عائدةً

إلى الأعشاشِ،

والكُحلَ المُفَسْفَرَ في عيون الصحب من

بقرٍ وجاموسٍ، ونومَ الحَبِّ في العنقود قبل

قطافه ، وأنينَ أخشابِ السواقي ، والملاحمَ

في رباب الشاعر الجوّال، رائحة مُنَشَّرَةً على

الملكوت من ثوب الأمومة والعجينِ وطلعةِ

الفجر المَنَدَّى بالتراب وسكرِ النعْناع والرُّزِّ

المَفَلْفَلِ والكوانين المضيئةِ في عَشاءِ السبتِ

والكتبِ القديمةِ والمصاحف،

كنتُ تحت هوا طل النَّبْلِ المقدَّس أتّكي وأكلمُ

الحصباءَ والجروَ المشاغبَ والحمامْ

وأعيدُ سَبْكَ ملامحِ الموتى وتَهْجئَةَ الحروفْ

وأعيدُ سَرْدَ تَهَجُّد الأبوين بالقرآن ما بين

العشيِّ وركعتيْ فجرٍ يُطلُّ من الكُوى في السقفِ،

أنسِلُ من لحاءِ التّيل ، أفْتِلُ رِبْقَةً

وأشدُّ معقودَ اللجامْ

وأعاهدُ الموتى ، وأضحكُ إذْ أراني أمةً — وحدي — من

الخلفِ الكثيرِ، وأحبكُ المقلاعَ، أختِلُ

للشَّواردِ من مُصَعْلكةِ البهائمِ والنباتِ

وخطفَةِ الغربانِ للكيزان والثمرِ المبشِّر،

كنتُ ما بين الضحى وكتابة القرآن في الألواح إذْ

سقطتْ من الصدر التميمةُ .. فالبلادْ
حرثٌ وحراثون، والأرضُ التميمةُ، والحصادْ
ميراث أهلٍ ينْسِلُون من الغمام إلى الغمامْ
في الخبز طعمهمو وفي الألواح رائحةُ الفواصلِ
والرغيفْ.
ثَقُلَتْ عليَّ عباءةُ الدم والرمادْ
والريح تَصْفِرُ في بوالي العظم .. أَدَّكِرُ التصاريفَ التي
عُلِّمْتُ من لغة الصفير الى البهائم والحمائم والكلاب:
فَنَفْخَةٌ بين القواطع لاستقاء الخيل والأغنام،
أخرى — بين تقطيعٍ ومدٍّ — فالحمائمُ وُقَّعٌ
فوق الذراعِ،
ونَفْخَةٌ في هيئة التَّقْبيل تَصْفُر من مقام العشق
فالأبوابُ تُفتح والنوافذُ،
بين إبهامين في الشفتين أو سبَّابتين يَهرُّ كلبٌ
أو تفرُّ دجاجةٌ أو تُؤْذِنُ النوقُ العصيَّةُ

بالحليبِ أو السُّفادْ .

ثَقُلَتْ عليَّ عباءةُ الدمِ والرمادِ وقَضْقَضَ الزِّلْزالُ
هيكلَ مَحْتمي والريحُ تصْفِرُ في
بوالي العظم نَفْخَ الصُّورِ ..
هو دجٌ ناقةٍ ويدان يَقْطُرُ منهما وَرْدُ الدِّهانِ
ومهرةٌ صهلت من الآبادِ،
طيرُ الذكريات مُنَفّرٌ،
"وَشَّحْتُ أعراقي بأعراقِ الثرى"، وتَنَفَّرتْ
أمشاجُ ما عُلِّمْتُ أو أُنْسيتُ،
مُنْحَلٌّ الجدائل من أصيل الصيف منسكبٌ،
يدايَ على حرير الأخضر الذهبيِّ،
أنْصِتُ ثم أرقبُ سُبْحَةَ الأطيار عائدةً،
وأنظرُ في ذُرَى النخل البعيد غلالةً هُدَّابُها
رَهَجٌ مُعَصْفَرَةٌ فتائِلُهُ،

وكفُّ اللهِ تُغمد سيفَه الكونيَّ في غمد الظلامْ

ثَقُلتْ عليَّ عباءة الدم .. والصهيلُ مُرَجَّعٌ ..

يا مهرة البلد البعيدِ .. بعيدةٌ،

وبعيدةٌ نارُ المضارب والخيامْ ..

روتردام ـــ رملة الأنجب

١٩٩٢/٦/٢٩

اصطلاءُ النشيد

رشفةٌ من قهوةِ الفجرِ،

ورمحٌ من ضرامِ البرق في مَرْشَف فنجانٍ،

وجمرٌ زفرةٌ تخبو يُغَطِّيها الرمادْ

غفوةٌ بارقةُ الخطْفة ترمي الرأس بين الكتفين.

رشفةٌ أخرى ..

ووجهُ الفجر ينحلُّ :

غرابٌ من دخان الكحل يعلو

ثم يهوي من مدى الشرق إلى الغربِ،

بأطراف جناحيه الدمُ الساطعُ

والنارُ وعهْنُ الذهب المضفورِ بالزرقة والفضةِ،

مِهمازٌ صَديٌّ وبقايا زَرَدٍ منّهدلٍ في صمته،

سرجٌ وأوتادٌ ونصلٌ ضائعُ المقْبضِ،

جمرٌ زفرةٌ تخبو يغطيها الرمادْ.

رشفةٌ أخرى ..

وريقُ البنِّ منسوجٌ بأنفاسِ أبي

الْمدْلجِ في النومِ الأخيرْ

وهو في إشراقةِ الحَيْرة ..

أَلْقى جسدَ السعي،

ارتخَتْ أعضاؤهْ فوق سرير السَّنْطِ والجُمَّيزْ،

ألقى من يدين ارتْختا مفتاحَ أهراءٍ من

الرغبة والخوف، الْتوَتْ في قدميه سبلُ الوحشة

والركضِ المدَمَّى، ارتعشتْ في ركبتيه سكْرةُ النَّزْعِ

وأهواءُ دم يخبو وطينٍ يُستعادْ.

آه من آخر ما يرجُفُ في الروح من العشق،

اغتسالِ النصل ما بين لحاء الشجر الرَّطْبِ،

أنينِ البلطة الصلبِ بأصلاب الجذوعِ،

الشهقةِ الأولى،

ووجهِ امرأة يفتح في القلب مغاليقَ البلادْ !!

(أشدُّ على مهرةَ النشيد سرج المطالع

والافتتاحيات :

غَزلٌ هو القطيفةُ والحريرُ المنمَنمُ ووَشْيُ

الدراهمِ الذهبيةِ وورودِ الصباحات الساطعة .

صيدٌ وطرادٌ للغزالات والنسورِ هما ليونَةُ

العراك الشبقيِّ مع الأوزان وقوافي

الطبولِ البعيدة .

وإحكامُ المجاز والفاصلة

وإتمامُ النعمة بالحكمة وسيّار المثل .

مراثٍ هي زحامُ الآفاق بمواكب الدم وبطائحِ

الشُهداء وداثرِ الثارات المؤرِّثَة

بكاءُ أطلالٍ هو وشمُ الدمع على هول

التدوير وانفراطِ المكان المنثور

مدائحُ نساجين لم يتركوا خيطًا من الغيم

والأفلاك وعروق السلالات والمصائر إلا

نسجوه في مُخرَّماتِ الغامض المنكشفِ
وسجّادات الحمَّى والحميَّة.
أهاجٍ كطعم السمِّ .. مُرٌّ صدورُها
وأعجازُها الخُطْبان بين الغلاصِمِ .)

مهرةٌ من قَصَبِ النايات والحلمِ،
وغيمٌ أشعلتْ أطرافة هالةُ شمس من
وراء الأفق
والريحُ عزيفٌ فائرٌ من طينة الكون،
الرباباتُ امتدادُ الرمل ..
تعلو هالةُ الشمس فتعلو في الربابات
مواويلُ المغنين القدامى
وأبِي يلتفُّ بالكتّان بعد الغُسْلِ والطّيبِ وحنّاء الحُنوطِ،
الجوقةُ اصطفّتْ .. وللمهرة ترجيع الصهيلْ
أيها الشعر الذي يَقْطُرُ بالطَّلِّ وبالدمع .. تَهَيّأْ

أيها الشاعرُ في الموت الجليلْ

شُدَّ أوتارَكَ وانفخْ دَمَكَ الملهمَ في الناي،

اتَّقدْ، واعصفْ بأبواقك عصف الماْء في الطوفان،

جَلجلْ بسلالات قراف من رميمِ الأهلِ،

ها أهلُك في الموتِ يخُبُّونَ،

أبوكَ انكشفتْ عن نومه أقْمطَةُ الفجرِ

وعن خطوته البوابةُ انْشَقَّتْ،

وللخطوة إيقاعُ الطبولْ

آه يا وجه أبي الميت !!

هذي مهرةٌ صافنةُ الإنشادِ في الغيب ..

فلا تَعْلِكُ إلا صَبْوةَ الشعر ومصْفودَ الغناءْ

قمْ إلي صهوتها وابدأ غيابَكْ

يا أبي ..والبسْ على أكفانك الخضر حديدَ

الزَّرَد الذاهلِ و البسْ

شكَّةَ الصيد الإلهيِّ

اتكئْ في لحظة الدفن على رمحك واخرجْ

بين صفين من الموتى وبعثرْ من هدايا عرسكَ

الفضةَ والكعكَ

اضطجعْ فى سرج أعراسك واسمعْ

من تلاقينِ الصهيلْ

آه يا وجة الميت !!

صبحٌ في احتفالياتِ موتٍ كلما انْفَضَّتْ أعيدَتْ

مَسْرَدًا حيا ؟! أم " الضُّرَّابَةُ "

امتدَّت فجميزٌ وسنطٌ يستعيدان الفصولْ

فهما من خشب اللحظة إِعْوالُ مواويلٍ يطولْ؟!

أمْ هما من رجفة القافيةِ المفْتَتَحُ الهائمُ في قول

الذهولْ ؟ !

كان وجهُ الفجر ينحلُّ ويَذَّاوَبُ في هالة شمسٍ أوشكتْ

وارْفَضَّ معراجُ شراراتٍ

وكانت مهرةُ الإنشادِ تعلو

وأبي يعلو على صهوتها

ظلّين في مَسْرى فضاء الروحِ

كانتْ نجمةُ الصبح على وشْك الأفولْ

وأنا من خطفة الرؤيةِ والرؤيا تلقفتُ حصى

الروح وقَلّبْتُ دمي

زفرةَ وجْدٍ جمرةٍ تخبو

يغطيها الرمادْ..

رملة الأنجب

١٩٩١/١٠/٣١

غنائية حجرِ الولاءِ والعهد

-١-

من يرحم الحجرَ المقدَّرَ للغواياتِ انهمارِ العصْفِ

أسنانِ الرياح مبارِدِ البحرِ الدءوبْ ؟

أقْوى خطى الحجر الوقوفْ

تنأى الحوادثُ عنه ملمومًا ..

فهل تنأى الحوادثُ ؟

ها هو الحجر الموطّأ للمطر

تتخدَّد الشمسُ الثقيلةُ وجهه ويَشيعُ من

عجلاتها طحْنُ الصَّريفْ

ومسيرةُ الحجر استقامتْ وجهةً مفتوحة للطحلب

البريِّ والكيمياء والملح المقَطَّر

والتحولِ في الأصابعِ ..

هاهو الحجرُ المملَّكُ للبشرْ

نارٌ تَبَجَّسُ أو مياهٌ تنفجرْ

من يرحمُ الحجرَ المخَبَّأَ تحت ذاكرةِ الطفولةِ صهوةً
أو في قرابات الصِّبا البيتَ الأليفْ
غيرُ القصيدةِ ؟ !
مَنْ سواها
حين يدخلها الحجرْ
متكشِّفًا عن وجهه الحجريِّ ثم يقيم فيها !!

-٢-

دَوَّرْتُ وجهَ حصاتِكَ الصوّانِ أعْلكُها

— وشمسُ التيه والظمأ الرفيقان —

ارتميْتُ على وجوهِكَ في الفلاة ، تفتَّحتْ

طرقُ التحيُّر ، نَبْأةٌ سريةٌ تَخْفَى وتُسْفِرُ

حينما سميتُكَ الحجرَ الأمين

يا شعرُ، واستدبْرتُ أحلامَ الصِّبا ورؤاه،

وانكشفتْ عن اليأس الرصين

لُمَعُ الشظايا من مياه العمر، واسْتَرْوَحْتُ

رائحةَ التراب يفضُّها مطرُ التذكرِ

حينما سميتُك الحجرَ الدفين

وَلفَقْتُ حولكَ من جراحات القطيفة، وانفطرْتُ،

أشَعْتُ بين أصابعي والكاغدِ المخطوط وشْمَ دمي،

وَلْملَمْتُ الرمادَ .. طعِمتُه كِسَرًا وُلذْتُ به،

وسميتُ الإقامةَ فيه هرولةَ التشكُّلِ
كانت الفوضى المليئةُ بالكلام
صمتًا ثقيلاً
قلتُ للحجر الذي استَسْلمتُ فيه:
أعِنْ دمي ، وافتح عليَّ بوجهكَ
المسكونِ بالقولِ الثقيل
وحين سميتُ الفواصل في الكلامْ
حجرًا، وأعلنتُ الإقامة فيه سميتُ الظلامْ،
نجمًا نحاسيًا وفوهَةَ بندقية مُخْبِرٍ،
وتحصَّنَتْ تفعيلةُ الرَّجز المراهقِ بانتشار
الوجه في جوع الزحامْ
وأقمت فيه .
وحين سميتُ البلادَ خريطةً لعناكب الألوان
تنسج كلَّ لون لقمةً للطاعمين وكلَّ
خيطٍ رايةً تعلو فتنقسم البلادُ وتستحيلُ

الأرضُ أسوارًا تَنَاسَلُ،

حين سميتُ الولاءَ وحين سميتُ العدوَّ رأيتُ

موتًا ناشبًا بين الجذور يَفُضُّ من عُقَد

الحموضة والمياه وشائجَ النسب الصريحِ

ويستقيمُ على محجَّتِه قتالُ الأهلِ،

نارٌ تجرفُ الحرثَ،

اسْتفاضَتْ من عُلُوٍّ المدِّ أجناسٌ من الوحشِ

الطيور المعدنِّيةِ والخفافيش الهيارات السمواتِ

العلا، والعصفُ أجنحةٌ دمٌ.

والريحُ تغلي بالغيومْ.

قلتُ: استمعْ .. هذي إضاءاتُ البكاء كتابةٌ

وقراءةٌ في الدمع..

فاقرأ واستمعْ..

هذي غواياتُ الحجرْ..

بعْثَرْتَ نفسَك أمْ همونثروكَ في عصف الولايةِ ..

لا الولاءُ يفجِّر الخبزَ الأمميَّ الجميعَ ولا

الذُّحُول تمدُّ أطرافَ الرماح صريحةً

فأقمتَ في الحدَّيْن

فاقرأ واستمعْ:

هذا الحجرْ

تَتَخَرَّمُ الأمطارُ صفحتَه ويذْروه الظلامْ

يعلو، ويفتح في شقوق البرق صلصالَ الكلامْ

ويعيدُ مجدَ الحلم للشعراءِ

يضْفِرُ من فتوق الصمت آيتَه

ويخطو خَطْوَهُ الكونيَّ في النجوى ويُعلن عن

مجيء الشعب في أعقابه ..

قلتُ : استفاقتْ من كراها هذه الزنجيّةُ الحُبلى،

فَألْبَسَها نزيفُ قصيدتي عُقْدًا من الجمْرِ

المؤرَّث في دمي

- الرَّجَزُ المبلَّل في خشونة ليفه يعدو

وراءَ الهوْدج – استَرْخَتْ على حِجْرِ البلادِ
وكدَّسَتْ أعضاءَها الزنجيةُ الحبلى
وغابتْ في نعاس الطَّلْق والتجأتْ إلى
أرفاغها كِسَفُ النيازك،
لاذ بالإبطيْن صوتُ الديك من كل القرى،
وتَفتَّرَتْ، لا الطلقُ يضربُ وقْدَة الملكوت تحت
حزامها الكونيّ، لا انفتحتْ عُرى اللبن الحبيسِ
بقُبَّتَيْها في المشارق والمغارب، وانْسَلَلْتُ،
وَضعتُ رأسي فوق ركبتها وثَقَّبْتُ الفضاءَ
بنظرةِ الحلم، ارتقبْتُ تَفَتّحَ الملكوتِ ما بيني
وبين حجارة الفحم المقبَّبِ،
قلت: ألوية الكلام
منقوشةٌ.. حجر الظلام كتابها المكتوم..
فاقرأ واستمع:

- ٣ -

للقلب آيته المضيئة..

أهلك انتشروا انتشار النمل،

صاحت صيحة: يأيها النمل ادخلوا السرب الأمين

— فما على وجه البسيطة من أحد —

والأرض تنغل بالعراك وغلمة القتل،

الحجر

مشبوبة خطواته منْ تحت ذاكرة الطفولة،

لا يكف عن التخلع من مقالعه،

وليس يكف عن حرث البسيطة والقصيدة،

ليس من حي يجلجل صوته بمراسم الهدم

المباغت للقبيلة غيره،

لا صوت يرعد بالبكاء وقد ترحلت الحبيبة أو

تقوض مضرب الأعمام والأخوال غير بكائه،

لا حي يحمل في مرايا صوته سرب الظباء وهبوة

الكحل المضيء وفي الحصى المشوي طعم الأمهات

ثريدةَ الأعراس إلاه،

وفوق جبينه المطحون صوتُ الهامة الظمأى

يولول بالقتال

وهمو تبددت الرياح بهم ولملم عنهم الموتُ الحوادثَ

فالبوادي تحت سلطان الحجر

وهو المكابد للحوادث وحده.

قدست بيعته أقمت الحلف ما بيني وبين

حضوره السيال.

عروتُه الوثيقةُ خاتَمُ الإرث الأخوةِ والولايةِ،

وهو عاصمتي أزاوج فيه بين الصمت

والشعر الكظيم..

١٩٧٩

قراءة

تلبسُ الشمسُ قميصَ الدمِ،
في ركبتها جرحٌ بعرض الريح
والأفق ينابيعُ دمٍ مفتوحةٌ
للطير والنخل ..
سلامٌ هي حتى مشرق النوم..
سلام/

ونساء النهر يطلعن:
خلاخيلٌ من العشب
استداراتٌ من الفضة والطمي
اشتهاءٌ بلّلتْه رغوةُ الماء
تصايحن على الطير، وبالشيلان
يمسحن زجاج الأفق،

يبكين بكاءً طازجَ الدفء
سلامٌ هي حتى مشرق
النوم..
سلام/

ضمت الحقولُ ركبتيها
ونامت الثعابين
سلامٌ ظلاميٌّ يتكوَّم قشًا
ناعمًا وزغبا
والثيرانُ أغفت واقفةً
تتكسر أنجم الليل في
حدقاتها الفسفورية الغائبة
سلامٌ قناعٌ من ليل رحيم

نامَ النصفُ الهالكُ ولم
يستيقظ النصفُ الحي
وخلت الأرضُ من كل دابة
فإذا قُضيت صلاةُ العتمة
وأقبلتْ ملائكةُ الحلم
وأشرق النومُ بنور
شمسه الخضراء
وآيته المبصرة
فبرحمةٍ منه خلعت أعضاءَ
النهار وفتحت في النصف الهالك
نافذةً والتففْتُ بالنصف
الحي وقامت قيامةُ الرؤية:
ترجلت عن رسوم الشراشف
ورائحة المخدات
فهل تركت الأغطيةُ على وجهي

رسومها الشجرية البارزة؟!
وجهي ورقٌ يتطاير وثمارٌ
يسّاقطن وأفرعٌ تنمو..

مهرةٌ تطلع من بيت أبي:
تُطوى المسافاتُ لها،
الفضة والبرق على حافرها ضَوّاً
غرناطةَ والأرضَ وراء النهر،
والزئبقُ والكحل بعينيها مرايا
اشتعلتْ بالطلل الواسع،
تعلو قامتي في جسد الحلم،
أضيءُ، الشجرُ الطالعُ في وجهيَ
معقودٌ، ودمع طازج الخضرة
مكتوبٌ على وجهي ينابيع وأقواسًا
من الماء الهلاليّ
وتعلو قامتي في جسد الحلم:

سهيلٌ وردة خافقةٌ في عروة القلب،
ينابيع دم معتمةٌ تصحو،
خيول طلعت من "جزء عم"
اتسعتْ دائرةُ الأرض..
سلام هي حتى مطلع الفجر..
سلام/

ركبتي مقصورةٌ في طرف الأفق
ووجهي ازدحمتْ فيه الكتاباتُ
البروقُ الورقُ الأخضرُ والماءُ
(الحروفْ / أمة من الأمم، مخاطبون ومكلفون)
الطيور انفجرت في قبة الريح كما
تنفجر البئر، تذكرتُ،
هو الأفق الأريكة

جسدي مقصورةٌ، أملكُ ملكًا لم
يكن لي ليس للغير،
تذكرتُ ومن تحتي نهر الصور الحية
يجري والينابيع تواشحن كما أقضي..

تذكرتُ فجاءتْ كرةُ الأرض
وجاءتني السماواتُ وأبدلْنَ
ثيابًا بثياب.

المزْجُ بين خلائق الذاكرة وزواجُ
ما ليس ذكرا بالأنثى وما ليس أنثى
بالذِكر
وفرحُ القوى الأرضية وهبني
قوةَ الاستحضار بمددٍ من صور
الذاكرة المهشّمة
فاستحضرت من الأطعمة والصور
والسماع الطيب على ما أشتهي

وطال الوقوف في مقام "كن"
وامتلأ الفرح بالأسئلة الغضة
وتهدل شجر الوجه بالهواجس الطازجة
وبراعم الحيرة المنتبهة
فعرفتُ أني على المعراج أتمشى في
مقصورة اليقين الأوحد
واتسعت دائرةُ الأرض،
السموات سراويل يتفتقن عن
خاصرة النهر الحي
نافذة تحت سراويل البحر مفتوحة،
والإشراقيون الهرامسة والعرفاء
يقيمون وليمة الجدل النوري،
السهروردي يتنفس ملء الفضاء
ويقسم الخبز والسمك النيلي المفضض
ويأكل ملء الفوضى ويشرب ملء
الفيض الذي لا ينقطع.

الهرامسة ينسجون بردة السماع
والطرب ويفرشونها للقبيلة النبيلة
والوحش والطير مستراحًا وكنفًا
وتوطئةً لتعارف الخلق ومصاهرة
الخلائق مثنى وثلاث ورباع وإلى
آخر ما تعيه الذاكرة من الأعداد

نساء النهر يكشفن عن الساق
النحاسية والطي وعشب
الخليقة الطالعة من كل نوم.
سلام هي حتى مطلع الفجر.. سلام/
مهرةٌ تصهل في بيت أبي، بيت أبي
مرتحل في جسد الحلم،
الفراتان كتاب من دم يصعد
والنيل كتاب

وسراويل دم منتشرٍ يخلعها البحر
فتلبس الصحراوات وتزّيّن الأرض
الواسعة وشظايا الخرائب ببهاء
الصاعقة وخضرة النار
والشمس تولج أطراف الليل في
قفازات الأرجوان وجوارب الذهب
المسبوك وغير المسبوك
صاعدةٌ هي ومليئة
هابطٌ هو إلى همهمة الخشاش
وتلاصق الدويبات وزواحف
السعي
ضاقت الخطوة.
في مَرْقَعَةِ النصف النهاريِّ
التفْتُ، انتشرت رائحة النوم الظلامي
وقاءت فُرُشُ الصوف، ارتمتْ

ألحفةُ القطن المندّاةُ..

سلامٌ عنكبوتٌ من دم

خثّره أن التقاطيع تشابهن..

سلام/

جسدٌ يهجره الماءُ

وماءٌ هجرتْه الذاكرة.

١٩٧٥

صبي الفرح بالتراب

"إلى لؤي"

بوجهك وهْجُ دمٍ يتكشَّف فيه النبيون
والخيل تصهل تحت انفلاق الوراثة والسلف الصعب
عن وقدةٍ تتغير فيها خطى الريح:
يعلو الكلامُ ويخلع أوزانَه
يستعيد المراسيم والسجع ينبت من همهمات الكهانة
والنفث في عقد الليف والعشب
فالأرض مُحضرةٌ والسماء مياهٌ مقدرةٌ
والنبيون مستغرقون..

بوجهك ألف دم والدوارق شفافة وأنا
أتقسم منك بلادًا وأنفرط الرقص والراقصين
أفيض وأعلو سيولاً من الخلف المتكثر..
ها جسدي واحد وكثير،
وها وحشة المتوحد أرض تزاحَم فيها الخلائق،
عهد أوثقه
سفر في التذكر، بيت الإقامة
جلجلة العصف، مضغ الجذور الطرية في الأرض
فتح الكلامِ مع الطير والوحش
خصْفُ الفروع ومشتبكُ الماءِ تحت لساني..
تنظَّرتُ:
يخشوشن الصوتُ أو يسقط
الزغب الأصفر، العشق يعطيك شارات أمجاده
عُشُبًا لائذًا بالذراعين
رائحةً يتفتق منها خفيُّ النداءاتِ..

أسمع حمحمةً للذكورة والعشق في خفق نعليك
أسمع في جسدي رعدة الملكوت وأسمع
خطو الملايين ما بين خطوي وخطوك..

نذرتُكَ تقدمةً لاندلاع البراعم في خشب الوقت
فالشمسُ ذائبةٌ تحت خضرة قمصانك الطلُّ
مختبئٌ والحريقُ

املأ الأرض بالغابرين من السلف، املأ
بوجهي الملوَّحِ أرجازَ بادية الأهل
واتبع خطى الماء بين الغضا والأراكِ
سهيل دليلك والفتح ميقاتك..
اكتمل العرسُ
فانظر دمي هبوة في فضاءات عشقك:

أنصبُّ بينكما في مياه الدوارق

ألتفُّ في نكهة الكعك..

وانظرْ دمي في لواءٍ من الطير يسكن أفق الممالك

والبحر:

أسكن بين الترائب والصلب،

أغدو المواريثَ والوارثين..

١٩٧٨/٣/٢٦

وشم النهر على خرائط الجسد

"الوشم الثالث"

{إلى غيلان الدمشقي

وهو يجدد شهادته على مفترق الطرق

بين النوم الألفيّ والثورة المغدورة

والموتِ الملغوم}

هي الشمس..

هل كانت، الأرض رمانةً تتخلق فيها أجنتُها الخضر،

هل كان ما في عروقي غمامة

تفتقها الريح، تجدلها موسمًا يتفتح في سرة الأرض،

تنسجها حمرة تتكشف

تنسجها رحمًا ومشيمة؟!

هل الأرض رمانةٌ جسدي جذرُها الشبكيُّ،

هل الشمس كانت رصاصًا يثقِّب أفرعها (جسدي)

مانحًا جسدي شكله بالفراغات والكتل

المستحمة في قزح الدمع

والدمع قوسُ الأفق؟!

هي الأرض..

هل كنتُ أنشوطةَ الصيد بينهما

أم أنا السمك المتحجِّر في مائها المشتعل؟!

هي الشمس والأرض.. رأسي الفضا، قدمايَ الممالكُ،
بين الأصابع كانت قرى النوم والمدن المستحمةُ
بالليل، بين الأصابع كانت رمال الظهيرة
سقوفًا تدردب أوطانَ موتٍ وأكفانَ جوعٍ وغربة
تبعثر أجناسَ أرصفةٍ ولغات، تبعثر حَبَّ المواريثِ،
تُنبت نخل الحجارة
تمد موائدها.. كل شيء مضيءٌ.. وليمتها أرؤسٌ
تتخابث بالهمس،
يقطر منها دم يتخاصر فوق الصحاف
ويلتفّ أقنعةً وكلامًا — كلامًا
يخثّره الخوف.
كانت رمال الظهيرة
تكوره شجرًا حجريَّ التفرع.. يا ساعةَ الرمل..
هل أنت آنيةُ الغضب المتفتتِ هل أنت رمانةُ الأرض
يُختَصُّ فيك الفراغُ — الرمالُ — الكلام

وهل أنت موعودة للهُوِيِّ حطامًا على ركبة الصرخات
القديمة
وهل أنت منذورة للتخلق أرغفةً ووجوهًا وأحصنةً ودما
تتخاصر فيه العداوات والخوف والقهر،
يرقص في شهوة العنف، يكشف ليل الغرائر
والشهوات الصريحةِ،
يلبس كتر هواجسه جسدًا ويمد يد الخلق بين
الرماد ويخطو خطى الشكل بين هيولي القيامة أم أنت
يا ساعة الرمل كراسةٌ للمواقيت.. في كل سطرٍ
تصاريف أرض يغمّسها البحر بالملح يأكلها
لقمةً لقمةً ثم يكتب:
"هذا شتاءُ المطر
أتى كرغيف الطحالب.. هل يغسل الماءُ أطرافهُ
أم يجيء دمًا من فساد العناصر والوقتِ،
هل يغسل الماء ما خَلّفتْه اليدُ البائدة
وهذا ربيع المواقيت أم موعدٌ للشجر
يفتّق من قشرة الوقت أكمامه الهامدة!!"

نافذة من الزجاج المعشق:

هي الشمس.. سمَّرها عنكبوتُ الشظايا،

سفينةُ نوح على الأرض،

وجهك يا طفلةَ الحلم والرعب منقسمٌ

مستريبُ المساحاتِ، أثوابُك امتلأتْ

بعطايا التناقض:

من تحتها سرةٌ تتشقّق،

هذي جيوشُ السلاطين هامدةٌ في السكون الملونِ

(لاتعبري النهر يا طفلتي يا غزالة رعبي

وحلمي المكثف..

يأتي زمانك.. يأتي زماني.. فنعبر في

جسد الرقص، نخترق الصرخة الحجرية)

هي الأرض..

هذا الدم المتخثرُ، وجهُ الحسين،

وعيناه كأسا دمٍ،

والشهادةُ بين ذراعيه: طفل تكلّمُ في جانبيه

الفتوق السخيّه

ودائرة الرمل كعكتهُ وفطامُ الشفاه الطرية.

هي الأرض..

قارورة الظمأ المتجذر بين التعاشيق.

(هل كان يدري الحسين

بأن المياه الأسيرة ملحٌ أجاج

وأن اشتجار السهام على الأفق فاتحةٌ

في كتاب المطر؟)

هي الأرض..

نافذة للغيوم الأسيرة،

لا تعبري النهر يا طفلتي ياغزالة حلمي المكثف،

هذا هو الله يمنحني ساعديه،

وهذا هو الشعب يقذفني حجرًا في سكون

الزجاج الملون..

فانتظري.. جسد الرقص يبدأ رعدته الدافئة..

- ٣ -

تقدم معي أيها الجسدُ – العبدُ

وامرقْ كما يمرق الرمحُ، هل صرخةٌ أنتَ

مكتوبةٌ في

نسيج الشوارع أم أنت دوّامةٌ تتجسد في

مدن تتقشّر تحت نصالِ المطر!

ويا بقعةً من دمٍ كتبتْها المدائنُ.. هل أنت مكتوبة في

المياهِ!

أم الماءُ جرحُ الكتابةُ!

تداعيات عصرية:

كنتُ – من نُخل النعاس –

أحمل الطمي الخرافيّ وأعطي

– من عطاياه – كتابات الحواس

فأرى العالم حولي غابة من شجر الصخر،

ونافورةَ ماء ونحاس

نُصِبَتْ خيمةُ موتي..

والعروسُ الخشبية

غُرِسَتْ في مركز الساحة.. والساحةُ ينبوع

دم تحت ثيابي

فاضحكوا بعد رحيل النعش بالموتى،

كلوا خبز الشعائر

وانظروني..

تطلع الشمس نصالاً

يسرع الغيمُ / البلادُ المبهمة

تفتح الريح كتابَ المطر/ الأرض التي تفتح من

شهوتها أخدودها البكر فتهو مدن

شاخت وعراها سقوط الأقنعة

تفتح الريح كتاب المطرِ — الشوكِ — الهواجس

فأرى النار التي تبرق من بين حروف الماء

أصوات لغاتٍ، مدنًا ترجُفُ في لحم المساحات التي

تكنسها الريح من الإرث،

أرى وجه المطر

ألبسته الأرضُ من لحم المساحات

(التي تسقط أو تولد)

أثواب الفصول الأربعة

يتمشّى في التواريخ دمًا — نفطًا — حصى من

أدعيات الفقراء

"واتّبع الذي ظلموا ما أُترفوا فيه وكانوا مجرمين

وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلُها مصلحون

وغيومًا كتبَ البرقُ بها وجه البلاد المبهمة..

هو الماء..

جرح الكتابة، أوراقها الصفر والخضر،

يمحو ويثبت، والماء طمثٌ على قدم المدن الراحلات إلى

أول الليل والماءُ طمثٌ على راحة المدن المقبلات،

ووجهي — الشواطئُ..

(فلتضربي يا مياه الكتابة

برجرجة المحو، هذا هو الجسد المرتخي:

وطنٌ عَمَّرَتْهُ الكآبة

وضَوَّأتِ اللغةُ المستباحةُ والغُمّةُ المستجابة

مساحاتِه .. فاضربي يا مياه الكتابة ..)

ووجهي — الشواطئُ .. تلك ((دمشق)) التي كنت اغسل

أقدامها وأراها علي شجر القلب رمانة

تَتَخَمَّرُ فيها أجِنَّتُها الخضرُ،

هذي دمشق التي أسلمتْني وكنتُ بساحاتها

أتكلّم .. كان الكلامُ يحمحم في

جسدي باشتباك الغرائزِ،

وَشَّحْتُ وجهي بلون الردي

وانفعالِ الشهادة

أنا جسدٌ يسكنُ الصوتُ أعضاءَه.. وأنا الصوتُ

اسكن في جسد الشعبِ

والشعبُ يبني القرى (أرأيتَ الملوكَ إذا دخلوا قريةً؟)

كنتُ أغسل وجهَ دمشقَ وأقدامَها وأراها علي هودجِ العُرسِ ..

(فلتنسجي كفني يا بلادي

فوجهُكِ محوٌ لوجهي، ونهرك مرثيةٌ في العمادِ

وأنتِ ..ازرعي خشبا للتوابيت

ولْتكتبي في الرمادِ

وخطي مصائرَكِ الهمجيةَ.. لا أَنتِ مسكونةٌ،

ليس هذا الدمُ المتخثّر من نطفةِ الخلقِ،

ليست بلادي بلادي .)

وكانت تحلُّ ضفائرَها تحت ألوية السَّبْي

تنثر أبناءها في نسيج الشوارع

في كل وجه تواريخُ نوم يفزِّعه الحرسُ الملكيُّ

وتحت القنوط المداهن نافورةُ الغضب المتآكلِ

تبرقُ تصدأُ..هذا أنا غضبُ النار نار الغضب

وهذي النعوش المليئة مسبحةٌ ودمي طالعٌ

في عروق الخشب

أنا في الرغيف الخميرةُ، في السوق سرُّ الربا

في كنوز الصبايا قشعريرةٌ،

وأنا فيضان الكلام المؤجل .. أحمل وجه

دمشق علي شجر القلب رمانةً،

أتحول في النهر دوَّامةً من حجارة

(وحدثني أنه اصطنع الأمويين والشعبَ

نهرين بينهما برزخٌ عسسٌ وسجونٌ

وأقلامُ فقهٍ ملونة)

قال : فانظرْ .. فأبصرتُ .. هذا هو الكلُّ .. فانْزرعي

يا بلاد الرعيةِ بالخيلِ وانزرعي بالرماحِ الطويلةِ

وَلْتَزْحفي مثلما يزحف السيلُ

فلينقسمْ كلُّ بيتٍ على نفسه كلُّ ماء على نبعهِ

وانفجرْ يا زمانَ الرضاعةِ أزمنةَ للعداواتِ

والقتل والثأر .. قومي ازحفي يا بلاد الرعية

هذا دمٌ تتوحَّد في أرضه مهرةُ الحلم،

يكتسحُ الماءَ

والماءُ نهران بينهما برزخٌ ..

فلْتقومي ..

فتوى للغضب :

باسم مَنْ أكتبُ. والليلُ أمامي كتبٌ مصفوفةٌ

والشعبُ لا يقرأ ؟!

فلأكْتُبْ:

ضرْبنا مثلاً ما ملكًا كان هو الساحر والكاهنُ،

والغابةُ طقسٌ جسديٌّ، كانت الغابة فيه

شجرًا منتظرًا والنومُ تاجًا من فراء المطر الأخضرِ

والصيدُ انفساحَ الدهشة البكرِ، وكان الصولجانْ

قمرَ العشب ونهرَ الدم ما بين أقاليم الحواسْ.

أرأيت القمرَ الأخضر يطفو في الينابيعِ؟ رأيتَ السمك

الوحشيَّ يلتفُّ به ، يأكل من أحشائه، يرتدّ في

سُلّمه الهابطِ للموت بطيئًا؟

أرأيتَ الملك الكاهنَ تستعصي عليه لغةُ السحر ؟

رأيتَ الجسدَ الذابل تنشقُّ عليه الغابةُ ــ النهرُ ــ المطرْ

فهو في جوع القبيلة

موسمٌ يبدأ ، في أرحامها وقتُ دمٍ يفصل بين الموت

والخلق ؟!

وهذي لحظةٌ تنفتقُ الذاكرة الحبلى بها .. والشعبُ
يرتدُّ إلى حربتهِ يشْحذُها،
يرجع للطقس وميثاق الذكورة .
أرأيت الملك الساقط ما بين الحرابْ
جسدًا منفرطَ السرِّ؟ رأيتَ الشعب إذ يغمسُ
كفّيه بعنقود الدم الفاتر أو يغسل أطراف الحرابْ
خالعًا طاعته، متَّشحًا بالرعب والجرْأةِ؟
كان اليومُ من أرغفة الخلق الطقوسيّ .. وكان الرقصُ
شعبًا طالعًا كالنهر ، كان الرقص عرشًا ــ صولجانًا ــ
جسدًا يولد، كان الرقص تاجًا ، والقبيلةْ
ملكًا ، والرقصُ والحربةُ بهوًا للمراسيمِ.
رأيتمْ؟!

وأنا أكتب أمثالاً:

أرى في جسد الشعب الينابيعَ العميقة

مُلئت بالسمك الوحشيِّ، والنهرَ الذي يفْجأ بالبرق،

أرى وجه القمرْ

بازغا في أفق الجوعِ ــ الدمِ ــ الرقصِ ــ الحرابْ

(أسمعتُمْ صوتَه في الجسد الذابل يبكي ويغني؟)

فاخرجوا .. هذا هو البرزخُ .. هذانِ هما النهران ..

فارْموا عن يدين .. اقتتلوا

فالدمُ القادمُ أرضٌ، مهرةُ الحلم ..

سمعتمْ ؟!

- ٤ -

أنا في دمشق التي كنت أعشق غَمَّازَتَيْها
أمرُّ مرورَ الهواء المراوِغ
تمتدُّ بي شجْرةُ الموت كالقلعِ
من حوليَ الأرضُ مركبةٌ جنحتْ ..

ولكنهم أسْلموني .. هي الأرضُ معطوبةٌ،
فانتظَرتُ .. أكانتْ مرايا الكلام رماديةً
لستَ تدرى أتبصر وجهكَ أم وجهَ جلادِكَ
المتخفّي وراء الزجاج أم الموتُ
يرقُب ميعادَه بين عينيكَ!!
خيلُ "هشامٍ" مطهَّمَةٌ وهو يعبرُ بين الجماهيرِ
(هل هذه الرَّغْوَةُ البشريةُ من فقراء الرعيّةِ
أم طغمةُ الحرس المرتشي تتخفّى وتصطنع
الفقهاءَ وتعقد من زحمة المهرجانات أقنعةً ؟!)

وخلتْ ساحةَ الموت (والأرضُ لافتةٌ قشَّرتْها الحوافرُ)
والليل يهبطُ .. يهبط .. تمتدُّ بي شَجْرَةُ الموت في الريح
يأيها الطائر المرتخي .. جسدي أفرغٌ
تتوجَّع ، هل قادمٌ أنتَ ملتجئًا لعشاش
الجروح لتكمل نومكَ أم أنتَ مرتعدٌ
والمسافاتُ تحت جناحيك تَفْقِسُ أرضًا وشعبًا؟
أنيخي على الأفق يا ناقة الموت، وارتحلي،
ها هو القمحُ والنخلُ أبسطةٌ والجيوش الغربيةُ
واقفةٌ في المداخل والشعبُ يبني القرى
(أرأيتَ ملوكَ السلالة إذ يدخلونَ القرى؟!)
وأنا جسدُ الصرخة الراحلة
سلامٌ على النهر في كتب الفيضان الموجَّل،
ألقي سلاما على زهرة الانفسام التي تتبرعم في
خرق الجوع والخوف
ألقي سلاما ..

١٩٧٣/٨/١٧

مرثية عمر

طاردني في خُفِّه المقطوع
يضربني بالخنجر المطويِّ في عباءة الخلافة
متهمًا إيايَ بالعرافة
يطردني إلي مدائن الهزيمة
يجعلني حجَّته الغراءَ في مواقف القيامة
(بأنه جوَّعني ولم يجع !!
بأنه فَضَّحني، غرَّبني، في داخلي نفاني!!)
وجاءني معتذرًا أليفا
ساومني على خراج الصمت باللذائذ القاتلة المحرَّمة
علَّمني التنازلَ القميءَ في رشاقة وكبرياء
العالَمُ ـــ الخريطةُ الممزَّقة
العالَمُ ـــ الوجوهُ والملامح الملفَّقة
طاردني في خفة المقطوع
يضربني بالجوع ..

من أنت يا محدثي في الجذْر والفروع
من أنت يا مرتحلاً في لبن الضروع
وصائحًا مندلقا من الحوائط المخربة
وراكضا في عتمة السحابة
من أنت يا أمومةَ الألفة يا أبوَّةَ الغرابة
يا نَهَرًا في الصيف، يا فاكهة في كرمة الخريف
من أنت يا مغيَّبَ العينين في حمائل السيوف!!

أخرجني تحولُ الفصول
وساقني من حفرة الرفض إلى شوارع القبول
أوقفني منتظرا فاكهة الألوان
فنشرت نسيجَها عناكبُ الذبول
واسْتَنْوقَتْ جمالُنا وأذَّنَتْ في الأسطح الدجاجة.

مسافرٌ في اليأس والكآبة

تضربني ـــ في عَدْوِها ـــ حوافرُ السحابة

أقرأ ما تكتبه الشمس وما تكتبه الكروم

أعود من بوابة الخروج

مكتهلاً، تركض في ملامحي الكآبة

تغسلني مواحقُ النسيان من ذاكرتي،

تحترق الكتابة

وتنبُتُ الحرابُ في الحناجر

وتعشب الخناجر

وتنبت العيون في أقفية الزحام

ويؤكل اليأس على موائد الطعام

متبَّلاً بالسحت والحرام ..

الرجل الملثم الفقيرُ .. في متاهة الصحراء

قابلني ، أوطأني الرداءَ والعباءةَ المرقّعة

أقعدني في ظله، قاسمني لقيمةً،

ثم رمى لثامه .. فاشتعلتْ في اللحية الفصول

والتمعتْ في عينه شرارةُ البدء وغيمةُ الوصول

وانتقلت ما بيننا قِرْبَتُه باليأس والعزاء

وانشعبَ الحوارْ..

(أخرج من أكمامه دِرَّتَه القديمة).

الرجل الملثم الفقير

قاسمني ثريدةَ الرمل كأننا سنأكل الصحراء

قاسمني الجرادِقَ المرَّةَ والسراب

وقال لي: تستوجب الحدَّ إذا زنيت

فما تقول في عالمك – الربيطة

والنَّهَرِ الديُّوثِ والطمي الذي يُنبت زَهَرَ اللواطة

وشجرَ الزنا وسفلسَ الكروم !!

وقال لي : تخون لو أضعتَ بَعْرَةً من إبل الجماعة

فما تقول في من ضيَّع الإنسانَ في ارتداغه الذليل!!

وما تقول في من خالس الرياحَ سرَّها

روَّضها أقامها شجيرةً عارية أو حائطًا أو مقصلة !!

وما تقول في من روض النهر

وجَزَّ رأسَه أقامه خَرّارةً ومزبلة !!

وقال لي : ما بين شَرَكِ الشك وشَرَكِ اليقين

دخلتَ في هاوية التوحيد سائلا

فهالَكَ الصمتُ وهالَكَ الظلام

فما تقول في الآلهة الألف التي تموت أو تُبعث كل عام

تأتيك في طقوسها تسألك الصمت وتطلب الخراج

تسألك العبورَ في القناطر الموسومة

تمنحك الحياة لو دخلتَ طائعًا في السَّلَبِ المنهوبِ

والغنيمة

تمنحك النصرَ إذا قنعْت بالهزيمة !!

الحرس الذي يَدَّرِعُ الآن بكل لون
يثقب وجه الأرض
يقيم حائط السجن أمام كل بيت
يزرع في حدائق العالم شجر الكراهة ..
ألبسني عباءةَ اليأس وظمأَ الغمام
ونقشتْ دِرَّتُه خطوطَها الزرقاءَ في القلب وفي العظام
حَمَّلني السلام
لنهَرِ العقم الذي يطفح في الزحام
والزور والأرصفة المراوغة.

حَمَّلني السلام
للجملِ الناقِة أو للبشر الأنعام
والجوعِ في القري الممرَّغة.

حَمَّلني السلام

لكل ما يُكتب أو يُقال

خَيَّرَني ما بين أن أحمل شارة النفي وبيرقَ الظلام

أو أبدأ الرقصَ على طقوس الطرق الواضحة العريضة

(ما طعم ما يُدِرُّه ثدياك يا مومسَنا المتوَّجة ؟!
حليبُك الممزوجُ بالقصائد المضرجة
أحرقني .. فاخترت أن أجوع).

قابلني مرقَّعَ العباءة
في كل رقعةٍ دماءُ قريةٍ،
والخيطُ من حشائش الحقول

رأيته يضحك أو يبكي بكل لهجة
سمعته يقول
أغنيةً داميةَ الإيقاع تسأل الرَّفْدَ وتسأل الفصول
أن تملأ المخلاةَ بالقمح ليبدأ السفر
من كل ما استبُيح من قرى ومن مدن
إلى طريقة السفليِّ في المناجم الحرام ..

١٩٦٦/٩/٥

اليمامة الدامية

كان في قلبي عش من نديف الزغب الأخضر

مجدول بمنديل التريف

ويمامة

كلما أثقلني الحب رمت زهرةَ نارٍ وعلامة

طوّقتني بالمواريث التي حُمِّلتُها من قرية النمل القديمة

فأرى الشمس تدلت (في غواشي الحلم)

أعطتني الشعار الملتهب

فتقاسمتُ مع الأرض الرغيف

وافترقنا.

(سأعطيكِ إبريق ماء غريب

لكي تغسلي فيه حزني

وكي تغرقي فيه ما اعتاد قلبي الكئيب

من الموت ،

لا تتركيني ولا تسمعي من تراب الدم الحي رؤيا

ولا تطلقي طائر الدمع مني

دعيه يَرِدْ دارةَ الخمر والشعر،

إن الرؤى لم تزل من ضلوعي تفرُّ

ومازال خبزي دمي الحي،

أُنسيت ما كنت أعددته من حكايا

لكي أطرد الصمت عنكِ.

تعاليْ بنا ننطلق ساعة في الظلام

لتهوي علينا سحابات أحلامنا باليمام المضيء

ونطوي كتاب التزيف ..)

كل شيء دامعٌ ، كل رصيف

تنثر الريح عليه الذكريات المبهمة

كل شيء كان يُستقطر مني

وأنا كنت أغني

في خلايا كل شيء

– وأنا أنظر من طاقة سجني –

رفرفتْ وانزلقت إحدى النجوم

غطست بين الغيوم

طلعت نجمًا نحاسيا على سترة سجاني الغشوم

وأنا أنظر ما بين الزوايا

يصعد الطفل الذي يلبس وجهي وخُطايا ..

(تعلقت بالقمر المتخفّي وراء الضباب
و لم يتقدم معي جسدي المتعطشُ للنومِ،
لم يمتلىء بالتشهي الجِبِلّيِّ،
خلّعني الرعبُ من لغتي الرؤيوية
وعرَّفني في احتراقات ألوانها الغرينية
رموزَ الأساطير والشجرَ المتهدل في طرقات الخرافة
وعرفني فرحة الشمس والقمر المتكسِّرَ
في أحرف الأبجدية
وعرَّفني وطني واغترابي).

يصعد الطفل الذي يلبس وجهي وخطايا
يدخل الساحة في موَّاله المغترب الإيقاع
تغشاه الرؤى منفتح العين، يغني
- راقصا - يحلم بالشمس التي تطلع من عنف الدما
والقمر الساطع في جوع الجسد
كلما مر بأبواب المدينة
نزَّ من أحشائها الطمْثُ وغارت سوسةُ الشهوة
للطمي وأنفاس الولد

نزَّ منها الطمث حتى اصطبغت منه الزوايا الحجرية
يهرب الطفل على جلبابه بقعة دم .
عندما تضرب ساعات الميادين تمام العاشرة
يتخطى حائط الرؤيا فأكسوه بلحمي وعظامي

(أُصَعِّدُ في السلم الدائري الذي ينتهي بالسقوط
وفي مفصلي الثلجُ، يهتز في أضلعي عنكبوت القنوط
هنا .. كنت في قرية النمل وحدي
وفي عتمة الليل يبكي دمي الطفلُ،
يشطرني خنجر الرعب طفلَيْن
- في ظلمة الروح - يبتدئان الحوار
بحنجرتي يتراشق صوتاها بالحجار
وفي قرية النمل ألقى ربيع " البلاجرا " بأزهاره
شارة في الصدور

صرخنا إلى أمهات مقطَّعة الثدي ..

في سنيّ العاشرة

رأيت سقوف الظهيرة تهوي

وتهجر صوتي الخرافة

تطاردني بومة الصيف،

أبكي لأخفي خفايا التواصل،

أبكي إذا ما تساند فوق الثرى حجران

وفي ليلة الجوع ظللنا حلُمٌ بزهور المطر ..)

وأنا أُبحر في صوت التواشيح الظوامي

والمواويلِ الدوامي

وأرى في قمر الصرخة مهْما زي ورمحي وحسامي

أركب الناقة ما بين شقوق الصحراء

قِربتي الصهدُ، ويأسي خيمتي،

والشمس في رأسي سفافيدُ الشواء ..

(توحَّدْتِ بالنهر والأرض حتى سمعتُكِ بوحًا
يغمغم في كل ساقية خشبية
رأيتك مغمومةَ القلب في كل صوت
ومجهدة الوجه في كل تقطيبة واصفرار
ومطفأة العين في كل دار
ومرخيَّة الشعر في كل صفصافة،
ورأيتك مشبوحةً في الرياح
ودافئةً تتفجر منك الحدائق في ردهات القرار
تنفستُ ريحَك في كل دفقة ماء وفي كل
توقيعة من مطر ..)

وأنا أحمل في هودج أسفاري المخيفة
ذهب التاج وكنز الأمراء
ومراسيم العطاء
هللوا يا فقراء
هللوا يا فقراء
هللوا يا ..

كان في قلبيَ عش من نديف الزغب الأخضر

مجدول بمنديل التريف

ويمامة

كلما أثقلني الحب رمت زهرة نار وعلامة

وأنا أخلع لحمي وعظامي

أخصف الأوراق – مما تحمل الريح – قناعا

أعبر البحر وأمشي في الثغور

أدخل الأرض وأغفو في الجذور

وأعود..

* * *

حينما أنكرني صوتي وأنكرتُ قداسات الجسد

كنت – من رحلة موتي –

عائدا .. ادخل أبواب المدينة

فأرى فوق الرماح

جسدي الميتَ مصلوبا ،

ومنديل النزيف

مزقا فارغة،

أنظر في دائرة الأفق الفراغ.

١٩٧٠/٩/٣

الجوع والقمر

(١)

هبَّتْ هياكلُهم من الأرض البوار
عظمًا رماديا، بقايا من كفن
فالجوع مد أصابع النيران حبلا في النحور
والطمي أزَّ كأنه حطب بقلب النارِ،
صوتٌ مرهف دامي الصدى في الكون طنّ
يستنفر الموتى، يشق عن الجماجم سكرة الأرض -
البوار
والصبية المتوحشون تخلعت أظفارهم في
الأرض بحثا عن جذور ميتة
وقفوا قليلا، حدَّقوا في الصمت، أعشاهم
صراخ الضوء في عين السماء الباهتة
خطفتهم الرؤيا فناموا في النهار
والريح أفعى تغتلي أحشاؤها جوعا،
فدارت والتوت حول الجسور
فحَّتْ، عَوتْ، نادت لتوقظ غفوة الموتى:
لقد جاع الصغار

جاع الصغار

فانشقَّ في ليل القرى ملح القبور.

هبت هياكلهم من الأرض البوار

وتحلقوا حول القرى

أسوارَ عظْم في بقايا من كفن

جاسوا خلال الدور، ساروا في الحقول الخالية

نادوا .. فرد صدّى أبحُّ في الظلام

غنوا .. بكوا .. شقّوا الجيوب البالية

(لاشيء يأكله الصغار

فاترك عباءتك القديمةَ يا قمر

واسرقْ لهم بعض الذرة

بعض الذرة ..)

(٢)

الأمهات بلغن سن اليأس في صمت القرى

عاما فعاما والسراويل القديمةُ في انتظار

فخرجن في ليل القرى

يخْمشْن أفخاذا ويلطمن الفروج

يحلبن أضواءَ البروج

يشهقن إغراءً ويبكين ابتهالاً للقمر:

(لا تلتفتْ للحور .. لا تأخذ مناديلَ السفر

منهن، جئنا يا قمر

ادخل هنا،

واسق السراويل القديمة يا قمر ..)

(٣)

الصبية المتوحشون

تركوا أصابعهم بقلب الأرض،

قاموا يصرخون :

(إن كنت تسمعنا فألق جماجم الموتى التي

رُصَّتْ كئوسا فوق مائدة السماء

دعها بما فيها من الخمر التي عُصرت لهيبا في دماء

واجهْ بعينيك العيون الغاضبة

إن كنت تسمعنا فثبِّتْ عينك الجوفاءَ في عين البشر ..)

(٤)

الموت يمشي في القرى

خطواتهُ في الريح جسرٌ لا يُرى

يمشي بطيئا، يخلع الأكمام، يرمي ثوبه فوق الفضاء

أنفاسُه دارت لتطفىء كلَّ مصباح مضاء

فجرى إلية الصبية المتوحشون

لاذوا برجليه .. فغمغم في صفاء

ناحوا له فجثا وغمغم وابتسم

وأضاء في عينيه مصباحُ الألم

صاحوا به :

هذا قمر

فمشى بهم .. خطواتُه في الريح جسر لا يرُى

ألقى عباءته عليهم وانتفض

لم يشعروا بالموت وهو يطير في جوف السماء

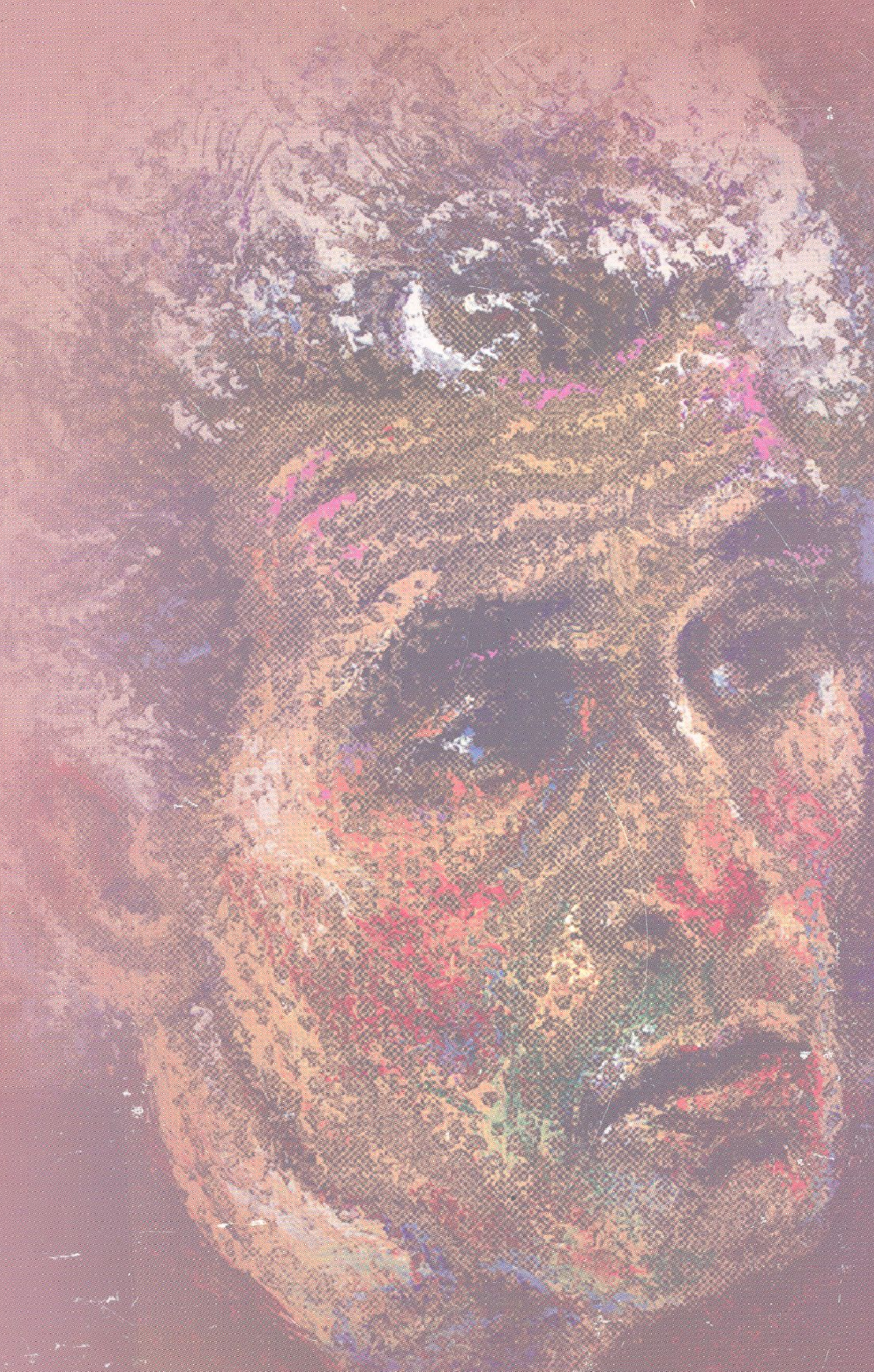
رقصوا بكفيه ونادوا:

(يا قمر

هبنا الذرة

هبنا الذرة ..)

١٩٦١/٧/٢١



مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة